شالوشا

رجب، محمد

شالوشا / محمد صالح رجب

روافد للنشر والتوزيع. ٢٠٢٠ طبعة أولى، القاهرة

٢١٩ ص ؛ ٢٢ سم

١-رواية ٢-العنوان أ – المؤلف

رقم التصنيف: ٨١٣.٠٠٨

رقم الإيداع: ١٨٦١ /٢٠٢٠

الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -544 -3

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

تليفون 01222235071 2+

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: رائد مجدي

محمد صالح رجب

شالوشا

שלוש

Shalocha

رواية

تنويه

هذا العمل من نسج الخيال، وأي تشابه مع الواقع هو محض صدفة.

إهداء

إليك زوجتي.

إلى أولادي:

محمود،عبدالرحمن، إيمان.

"كل شيء عدد، وأصل الوجود عدد".

فيثاغورس

الفصل الأول

عبيد..

لدواعي التجمل لم يعد لائقاً أن يباع البشر بصكوك ملكية. وما الحاجة إلى صكوك كتلك وبالإمكان أن يتملكوهم طواعية ومن دون صكوك، بالإمكان أن يمنحوهم ما هو أكثر من السخرة، بالإمكان أن يمنحوهم كِلاهم وأكبادهم وُمقلات أعينهم، بل، وكل أجسادهم.

١

قبل أن يغط الشارع الضيق في سباته، وتلملم ما تبقى من محالٍ أوراقها مؤذنة بنهاية يوم عمل شاق، توقفت سيارة ملاكي ميتسوبيشي حديثة موديل ٢٠١١ يقودها رجل ضخم أسمر البشرة، على مقعدها الخلفي يجلس ثلاثة رجال أقرب إلى الوحوش.. تترجل سيدة منتقبة فارعة الطول كانت تجلس إلى جواره وتسرع باتجاه بناية عتيقة من طابقين، أسفلها مكتبة صغيرة تعلوها لافتة كتب عليها "مكتبة الإيمان"، حيث شاب عشريني يلملم أشياءه تمهيدا على ما يبدو للمغادرة. دفعت السيدة المنتقبة فاترينة زجاجية ذات إطار خشبي وضعت في مدخل المكتبة ورصت على قَيِّمها دباديب وإكسسوارات مختلفة. دار حوار خافت قصير تلاه صرخة استغاثة، تحرك على اثرها الرجال الأربعة وقد حمل كل منهم هراوة غليظة، وفي دقائق معدودات كانت المكتبة أثراً بعد عين والشاب طريح الأرض مضرجا بالدماء، ولا أثر لهؤلاء بعد أن ابتلعت الأزقة سيارتهم قبل أن تلفظها إلى الشارع العمومي لتتوه وسط الزحام.

الحارة المنهكة تتحامل على آلامها، الشارع الضيق يتخلى عن هدوئه، الفوضى تفرض سطوتها، تتقاطع الحوقلات مع اللعنات المتطايرة باتجاه الجناة.. تندفع سيدة مسنة متجاوزة الحشد

المتجمهر. كان المشهد قاسيا حين وقعت عيناها على حسين، كان ملقى على الأرض، فاقد الوعي، ينزف دما. سريعا نفضت عنها آثار الصدمة. هرعت به إلى المستشفى. أوقاتا صعبة قضتها تتسول كلمة طمأنينة أخفقت في الحصول عليها. كان في حالة يرثى لها حين رأته، حدث ذلك في اليوم الرابع، كان مكبلاً بالجبائر والأربطة، لم تتحمل نظراته الواهنة. سريعا، غادرت غرفته وهي تصارع رغبة ملحة في البكاء، تبعتها سوزي وعشرات الأسئلة تجول بخاطرها: إلى متى الصمت؟! لماذا أنكرت معرفتها بالجاني؟ لماذا لم تشر إليه صراحة حين سألتها الشرطة؟ لماذا تخشاه؟ وما هي العلاقة بينهما؟ ومتى بدأت؟ ولماذا أخفتها؟ أي سر ذلك الذي تخفيه عنهم؟ وما قصة زائر الليل الذي اختلى بها قبل البارحة؟ ما حدث خلال الأيام القليلة الماضية يستفزها، يقهر قدرتها على الصمت؛ بادرتها قائلة:

- لم يعد السكوت ممكنا، قد ينجو هذه المرة، لكن.. ماذا عن المرات القادمة؟ السكوت يعني تكرار المحاولة، وأظنك حريصة على حياة ابنك الوحيد! ثم واصلت باستعطاف:
- طنط، حسين كل حياتي.. أرجوك: أُخرجي عن صمتك، تكلمي..

ساد صمت للحظات قبل أن تقطعه فاطمة قائلة:

- القصة كبيرة . يا ابنتي . أكبر مما تتخيلين، وأغرب من الخيال.. مات من مات من أبطالها وقتل من قتل، وما تبقى منهم قليلون وخطيرون.. ظننت أن الماضي لايعود، لكن بعد مايزيد عن ثلاثين عاما أكتشفت خطأ ظني.. إنها السنن الكونية، الصراع الأبدي بين الخير والشر.. فليكن حسين بعيدا عن هذا الصراع، لو علم بتفاصيل تلك القصة لكان لزاما عليه أن يضع نهايتها بنفسه، ولو فعل لَهَلَك. فلتكن النهاية من صنيعي، أنا من عايشت القصة وأنا لا غيري من يتوجب عليها أن تستكملها وتضع نهاية لها..

٢

ما نحن إلا جنود لنجعَل تحقيق رغبتك بيدك.. تظل الرغبات أمنياتٍ تتراوح بين الخفوت والظهور، نستحدث رغباتٍ و ننسى أخرى، نحقق منها شيئا ونخفق في تحقيق أشياء، لكن حينٍ تستحوذ على المرء رغبةُ بعينها، تلازمه كقرين، تدفعه لارتكاب كل تلك الآثام، حينها نَتدَخل. ثمة نقطة بعينها لا يجب تجاوزها، نقطة عندها نؤُمر أن نضع الكرة في ملعبك، نعم في ملعبك أنت، نقول لك: لا تلقي باللوم على الآخرين، لا تنقم على قدرك، تحقيق رغبتك بات بيدك، حققها بنفسك إن استطعت، لكن إخفاقك

هذه المرة يعني نهايتك.. وقد وصلت يا "عطيه" إلى تلك النقطة، تذهب إلى عملك وعيناك على كنز قارون، تمني نفسك به، حتى حينما كنت تنظر إلى الأرض بحثاً عن بعض الأموال، لم تكن لتقنع بما قد تجده، إنما كان هدفك أن تجمع ما جمعه قارون. لم تتعظ بذلك الرجل الذي نظر إلى الأرض طويلا بحثاً عن المال ولم يكتسب غير ظهرٍ محني ونظر ضعيف، وظللت تنظر إلى كل سطحٍ تطأه قدماك وكنز قارون يستحوذ عليك. تحلم بعرش فرعون الذي قال أليس لي حكم مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي. تعتقد أن كنز قارون سيحقق لك ذلك، سيدفعك إلى الانتخابات، سيوفر لك المنافسة على حكم مصر، ستشتري البرك والأنهار والناس وكل شيء، ستصبح سيداً ومن دونك عبيد.. هاهي رغبتك بيدك يا "عطيه"، مكان الكنز قد علمته، أمامك أشهر ثلاثة لتحصل عليه، إن لم تفعل فأنت ومن معك باتجاه مصيركم المحتوم، الموت، الأمر سري، مسموح بثلاثة أشخاصٍ أو مضاعفاتهم، ثلثهم من النساء.. لا تنسى، ثلاثة أو مضاعفاتها، ثلثهم من النساء..

كان عطية متكئا على سريره، جاحظ العينين، شارداً، يحاول أن يستوعب ذلك الحلم الذي جاءه للمرة الثالثة، كان الأمر أشبه بواقع أكثر منه حلما، كل شيء كان واضحاً أمامه بتفاصيله الدقيقة، هربت عيناه إلى ذلك المكان الذي خرج منه ذلك المارد، إلى سطح غرفته، لم يجد غير تلك السجادة المتهرئة التي ما تزال

تقهر بلاط غرفته المتآكل، وتعرقل شكواه للناظرين. تنبه إلى صوت المؤذن وهو يصدح "الصلاة خير من النوم".. لم يعتد أن يستيقظ في ذلك الوقت، لا يذكر أنه استيقظ يوما لصلاة الفجر أو أنه حتى استمَع إلى الآذان. فقط، في تلك المرات الثلاثة، وحين يغادره ذلك المارد، يستيقظ من نومه فزعا، يجافيه النوم لبعض الوقت إلى أن يأتيه الآذان، لا يلتفت إلى أي من عباراته، فقط يفكر في ذلك الحلم وقتا ثم ما يلبث أن يعاود النوم دون أن يصلي أو حتى دون أن يستعذ بالله. وكيف له أن يستعذ بالله من شيء يتمناه؟! يتمنى أن يحصل على كنز قارون ولو عبر الشيطان. يمني نفسه أن يجده في الطرقات والممرات وبالقرب من المحال التجارية أو عبر مارد يخرج له من باطن الأرض.. هذه المرة كان الأمر مختلفا، لم يعد كعادته إلى النوم، بل ظل يفكر. الأمر أصبح جدياً، بل ومرهوناً بحياته..

٣

يصعب على فَتى صغير، لم يتجاوز عمره العاشرة، أن يدرك مفهوم العبودية بشكله التقليدي القديم، حيث لا حياة ولاروح للعبيد إلا في أجسادهم. تلك العبودية التي انتفضت الدنمارك رفضا لها في عام ١٧٩٢ قبل أن تمنعها أوروبا من خلال معاهدة فينا ١٨١٤، ويحظرها العالم بكل أشكالها في مؤتمر العبودية الدولي ١٩٠٦م. يصعب على عقلٍ صغير كهذا أن يستوعب أنه إلى

أزمان ليست ببعيدة، كان بعض البشرِ سلعة تباع وتشترى. كان يتُخير الأقوياء من الفتيان، والجميلات من الفتيات، يُجلبون من مناطق الفقر والحروب، ليقتنيها نوعية من البشر، يدفعون الأموال ويأخذون صكوك الملكية، التي تمنحهم حق التصرف فيهم، يقضون ساعات طوال في العمل سخرةً، يُعذبون منهم من يشَاؤون، ويأنَسون لمن يشاؤون، يضربونهم إن غضبوا، ويلهون بهم إن أرادوا الترويح عن أنفسهم، وإن ملّوا، باعوهم واشتروا آخرين.. ورغم غياب مفهوم العبودية بهذا المعنى عن عطيه، إلا أنه أدرك مبكراً نوعاً آخر من العبودية، اكتشفه صغيراً، ونما وترعرع معه سنوات عمره التي تخطت الثلاثين. لعلها العبودية بمفهومها الحديث. فلدواعي التجمل لم يعد لائقاً أن يباع البشر بصكوك ملكية. وما الحاجة إلى صكوك كتلك وبالإمكان أن يتملكوهم طواعية ومن دون صكوك! بالإمكان أن يمنحوهم ما هو أكثر من السخرة، بالإمكان أن يمنحوهم كلاهم وأكبادهم ومُقلات أعينهم، بل، وكل أجسادهم، وما الشرفُ ببعيد. أدرك عطية مبكراً قيمة المال، فالمال سلطان، به يمكن أن تسود من هم دونك، ومِن دون صكوك.. ثمة فارق كبير بين تلك العبودية التي لم يعها عطية والمصحوبة بالتملك والقهر والإجبار وتلك التي أدركها، فعبودية الحداثة وما بعدها تعني أنك لست مضطراً إلى السفر، لست مضطراً إلى احتلال بلدان وخوض المعارك لسبي العبيد، لست مضطراً أن ترغم نوعية من

البشر على خدمتك فتتُهم بأبشع الصفات، إنما هم الآن من يأتونك طوعاً. هي حتما ليست العبودية الطوعية التي تحدث عنها "إتيان دولابويسي" في مقالته الشهيرة التي نشرت عام ١٥٧٦، والتي ترفض ديكتاتورية الحاكم الفرد وتحض الناس على العصيان لوقف إمداده بأسباب الاستعباد، لكنها تلك العبودية التي تجعلك تقبل بأسياد شتى دون إنكار ولو بالقلب لا لشيء إلا لأنهم يلقون اليك بفتات أموالهم.. في عصر ما بعد الحداثة، أنت " تسود بقدر ما تملك" إن امتلكت المال فأنت سيدٌ وَمن دونك عبيد.. السيادة، إذا، في شكلها الجديد ليست للأقوى ولا للأصلح والأفضل، إنما للأكثر أموالا.. بالمال يمكن أن تشتري علماً وشهادات، يمكن أن تشتري صحة وقطع غيار بشرية، يمكن أن تستأجر مرتزقة لتحميك، يمكن أن تشتري منصباً وسلطانا، يمكن أن تشتري ذمم صحافيين فيلمعونك، ورجال دين يشرعنون انحرافاتك، ويسترون عوراتك بعباءة الدين.. المال يحرك كل شيء، ولكلٍ تسعيرته، من يتمنع إنما يتمنع لسقف معين، حين يصل إلى تسعيرته، تتهاوى جدر المناعة. المال هو مصدر القوة، هو من يصنع سلطانا، هو من يأُمّن السيادة..

تبلورت تلك القناعة مبكرا لدى عطيه، وراح يبحث عن المال، وظل مواظباً على تلك العادة التي لازمته صغيراً، منذ قرأ قصة ذلك الرجل الذي وجد مالاً على الأرض، فظل يكنس الأرض بنظراته.

ظل يفعل ذلك في كل مكان. ظل يفعله أمام المتحف المصري، وبالقرب من المتاجر الكبيرة، والتجمعات البشرية، حتى حينما يستقل ميكروباص، أو اضطرته الظروف إلى ركوب تاكسي، كان أيضا يكنس سطح المكان بنظراته. لا تشده الأضواء، ولا جمال السيدات اللاتي تفتتن في التزين، ولا فخامة الديكورات وهندسة البنايات، ولا حتى تلك الحضارة العريقة التي يأتي الناس من كل الدنيا ليروا آثارها. شيء ما يدفعه باتجاه الأرض، إنه المال، المال الذي دفعه البحث عنه إلى دخول كلية الآثار، وهو المال ذاته الذي دفعه لتلك الرحلة التي شهد فيها الموتَ بأم عينيه..

٤

يلوذ كثير من المصريين بالوظيفة "الحكومية"، يقولون"إن فاتك الميري تمرغ في ترابه"، يعتقدون أنها مصدر أمان لهم في مواجهة تقلبات الزمن. لم يكن الحاج سعيد أحمد استثناءً كان يأمل أن يستجيب ابنه الوحيد "عطيه" لرغبته ويلتحق بكلية التربية التي تضمن له وظيفة حكومية فورية، لاسيما أن مجموع درجاته في الثانوية العامة والذي تعثر في الوصول إلى كليات الطب يؤهله لذلك. غير أن عطية المتمرد بطبعه أصر على أن يدخل كلية الآثار. لم يكن ذلك حباً فى تاريخ نتغنى به ونعيش على أمجاده، كان

"عطيه" يعتقد أن البحث عن الآثار بهدف فك طلاسم الحضارات القديمة وإبراز كم كانت عظيمة هو محض هروب، إنه تستر بعظمة الماضي عوضاً عن صناعة حاضر عظيم. البحث عن المزيد من دلائل لإثبات عظمة ماضٍ لا يحتاج إلى مزيد من الأدلة على عظمته هو لاريب مضيعة للوقت، وهروب من مسؤولية إضافة رصيد عظيم مماثل، لقد خيل اليه من كم الاكتشافات الهائل، أنهم يسابقون الزمن خشية أن ينفد يوما رصيد أمجاد الماضي، ولا يجدون ما يتغنون به، لكنه على كل حال خيارهم الأسهل، البحث عن مزيد من عظمة الماضي أسهل كثيراً من صنع حاضرٍعظيم، لاسيما أن مصر كلها تعوم على بحر شاسع من الآثار.. مراراً سأل نفسه: ماذا لو استفادوا من بيع أو حتى إيجار جزء من تلك الآثار لسداد الديون، وتشغيل الشباب، وبناء مساكن آدمية، ومدارس، ومعامل، ومستشفيات، وبيوت ثقافة وسينمات ومسارح، وعقول، وَ.. وصناعة حاضر عظيم؟ ما الفائدة من عرض آثار كمواد خام يشاهدها البعض مقابل بعض المال؟ غلبته ضحكة ساخرة، لقد سمعنا أن الآثار بدأت تُقلد، الصينيون لم يتركوا شيئا، أهرامات مصر بات لها نظير في الصين، صنعت لهانموذجاً فى إحدى حدائق مدينة شيجياتشوانج الصينية، ولم يعد للصينين، وَمن حولهم، حاجة في قطع الآف الأميال وإنفاق الآف الدولارات لزيارة مصر لرؤية الأهرامات.. الأمر لم يقتصر على الصين، كثير من دول العالم

فعلت الشيء ذاته، استنسخت نماذجاً من الآثار المصرية، فعلته ولاية لاس فيجاس بأمريكا التى استنسخت معابد مدينة الأقصر بالكامل، والأهرامات وأبوالهول..كما استنسخت أسبانيا مجسماً لمعبد أبو سمبل.. علم المصريات أصبح مادة علمية تدرس في كثير من جامعات العالم، المانيا وحدها بها أكثر من أربعة عشر معهداً تقوم بتدريسه، العالم كله يستفيد من هذا العلم، وحدها مصر لم تستفد من تلك الحضارة أكثر من ذلك الإرث المعنوي الذي نتفاخر به، وبعض الأموالِ التي نجنيها من عرض تلك الآثار، أموال ربما لم تُغطِ تكلفة البحث عنها واستخراجها.. هي ذات الثقافة، نتعامل معِ الآثار كمواد خام في حين يستفيد منها الآخرون بعد المعالجة، ليقدموا لنا منتجاً باهظ الثمنِ أو على الأقل يستخدمونها في صناعة عظمة حاضرهم..

حين أصر عطية على دخول كلية الآثار، كان أمامه هدف واحد، أن يكتسب المعارف اللازمة للوصول إلى الكنوز.. وكان دائما كنز قارون ماثلاً أمام عينيه.. ذلك الكنز الذي لا يقوى على حمل مفاتحه عصبة من الرجال الأشداء..

٥

اهلاً بك في عالم البطالة.. ذلك العالم الذي يقطنه مئات الألوف من العاطلين والذي من المتوقع أن يزاحمهم المصاطب والمقاهي ألوف مؤلفة أخرى، من المنتظرعودتهم إلى مصر خلال السنوات القادمة، سياسات التوطين التي بدأ الحديث عنها في دول البترول، وتراجع أهمية البترول كمصدر للطاقة أمام مصادر الطاقة المتجددة صديقة البيئة، ستؤديان حتما إلى الاستغناء عن معظم العمالة المصرية. فترت همَّة عطية حين وجد نفسه وسط جيشٍ جرارٍ من العاطلين، كان عطية يدرك جيدا أن الحياة قصيرة وإن طالت، لم يكن يعتقد أن الحياة هي تلك المسافة، أو الحيز الزمني، بين نقطتي الولادة والموت، كان يؤمن أن الحياة هي ذلك الحيز الزمني بين بداية الوعي ونهايته، لذا كان يسعى لاستغلال كل دقيقة، بدأ مبكرا، قرأ، اجتهد، هيأ نفسه، وحاول.. وفي كل مرةٍ كان الفشل حليفه، نظر إلى الأرض طويلا ولم يجد شيئا، بحث في عمق البحيرة من دون جدوى، دخل الآثار خصيصاً ولم تسعفه إلى الآن، كما لم تخدمه عشرات الكتب التي قرأها، عمل لفترة بائع في محل أحذية قبل أن يتركه ناقماً، بضع مئات من الجنيهات تسحقها مصروفاته على قلتها، كيف تحقق له السيادة؟ بحث كثيرا عن وظيفة مناسبة ولم يجد.. انصت إلى صوت بداخله، يعنفه "يا فاشل"، ذكره ذلك

الهاتف بكتاب قرأه يقول كاتبه "إن كل محاولةٍ لإسكات السلبي لن يكون له إلا أثر عكسي، وأن ملاحقة السلبي تولد ما هو ايجابي. وأن الفشل في الأعمال يقود لفهم أفضل لما هو ضروري من أجل تحقيق النجاح"، ورغم طمأنة نفسه بتلك العبارات إلا أنه قرأ أيضا: أن المبالغة والإفراط في طلب شيء ما، له مفعول عكسي".. شيء من الإحباط أصاب عطية في طريقه إلى سَكَنِه، وكعادته التي لم يتركها قط، حاول أن يكنس الأرض بعينيه، لم يجد غير سيقانٍ متلاصقة لاتحول فقط بينه وبين رؤية سطح الباص وإنما تحول أيضاً بينه وبين الهواء، شعر بضيق، شيء ما جاثم على صدره، لم ينتظر محطته المعتادة، نزل في أول محطة توقف فيها الباص، عيناه إلى الأرض، يطالع البلاطات، المسامير، الورق المتناثر، أكياس النفايات، العلب الفارغة، الملابس، الكتب، وَ.. كل شيء، كل شيء على الأرصفة الا المال! ضحك ساخراً من نفسه، لم يأبه لنظرات البعض المستنكرة.. في ذلك النهار الذي ينفث قيظه في كل اتجاه، وكأنما يتخفف من أعبائه قبل أن يحل الليل، تسرب اليأس إلى جوانحه، النقمة تركت أثرها في جبينه المقطب ووجهه المكفهر، راح يتسكع، لايعرف إلى أين يتجه، يتنقل بين المقاهي، تقذفه الشوارع الملتهبة، تبتلعه الحواري والأزقة، الوجوه تتشابه، الانكفاءات هي ذاتها، لا شيء هنا يخضع للمنطق، وحدها العشوائية تخضعك لسلطانها، تمشي تائها، فاقد الإحساس، تتجنبك الأشياء.. شيء ما بداخلك

يصرخ، يدفعك للتمرد، تترك الأرض التي أدمنت النظر اليها، تتأمل كل شيء.. صراع الألوان على واجهات البنايات المكفهرة، الوجوه الواجمة، أعمدة الإنارة، لوحات الدعاية.. لكن شيئاً ما بداخلك لم يتغير، يزداد تمردك إلى ما هو أبعد، تفكر في شيء لم تقدم عليه قط، غير أن الأشياء تتداعى، وحده شيء ما ظل صامدا، يغريك بفعله، فتفعل..

٦

الأضواء خافتة، سحب الدخان تتصاعد، الموسيقى تتدفق، الكؤوس تقرع، والضحكات الثملة تتعالى.. يجلس منزويا، لايدري أن العيون ترقبه.. شاب طويل، متين البنيان، وجهه خمري جذاب، له عينان عميقتان، أسود الشعر، يبدو مختلفا، محترما، و..غريبا.. أن تكون غريبا في ملًهى ليلي، فالعيون ترصدك، وإن كانت زيارتك هي الأولى لملًهى ليلي، فأنت إذاً صيد ثمين، أنت زبون "طياري" وعليك أن تدفع الفاتورة مضاعفة، لاشأن لهم إن كنت لم تتوقع قيمة الفاتورة أو لم تحسب حسابك، عليك أن تدفع وإلا فهذه الوحوش الجائعة والمسماة "بودي جارد" في انتظارك.. يواصل تمرده، يتجرع الكأس تلو الآخر، يشرب كثيراً حتى الثمالة.. يتشاجر، تتدخل "ريري"، وتدفع عنه الحساب.. إنها البداية، بداية التعارف،

مشهد مكرر، تتشابه البدايات، لكن النهايات قد تختلف.. شاب خام، يشد انتباه راقصه، تصطحبه إلى شقتها، تستمتع معه، تستخرج منه طاقاته وذلك المخزون العاطفي الذي ظل حبيساً بداخله لفترات طويلة.

كانت ريري وعلى غير عادتها قد غادرت الملهى في تلك الليلة مبكرا. حين دلفت إلى شقتها رمقت وجهها سريعا في المرآة وألقت بالمفاتيح على كونسول المدخل. ثم اصطحبته عبر تلك الردهة الضيقة إلى غرفة الجلوس. للحظات مكث يطالع صورة لها ببدلة الرقص كادت تأتي على كامل الحائط الذي عُلقت عليه في مواجهة مدخل الشقة لتكون على ما يبدو أول ما تراه العيون. جلس عطية في مواجهة منضدة تلفاز خشبية وُضِع عليها تلفاز ماركة تليمصر ١٤ بوصة تعلوه فازة ورد صغيرة والى جواره مسجل كبير بسماعتين. جال بعينية.. شقة بسيطة، طُلِيت حوائطها بألوان زاهية، أرضيات بلاط طُمست معالمها أسفل سجادة حمراء متماسكة، أثاث بحالة جيدة وزع بشكل جمالي ينم عن ذوق صاحبته العالي، انتريه يأتي على جانب من مساحة الصالة يتوسطه منضدة صغيرة وضع عليها مَنْفَضة سجائر زجاجية، بينما يستكين هاتف قرصي على طقطوقة في أقصى الصالة. فتحت التلفاز وهي تقول:

– على فكرة، هذا المكان لم يدخله رجل من قبل.

كتم بصعوبة ضحكة هائلة كادت تتفلت من بين شفتيه. تجاهلت نظراته المشككة. كان لافتا أن تبدل القناة التي تبث دراما إلى قناة تبث لقطات من مجلس الشعب. لم يتوقع عطية أن يشاهد أخباراً في بيت راقصة، وما للراقصات والسياسة! لم يبدل المحطة حين استأذنت لبعض الوقت. وراح يتابع باهتمام كلمة النائب "حازم أبو النجا" مدافعا بطلاقة وثقة عن الحكومة، معددا إنجازاتها التي لا ينكرها إلامغرض، كما قال.

كان عطية يتابع باهتمام حين دلفت ريري وفي يديها كأسي نبيذ، ترتدي قميص نوم أحمرتآمرعلى سترها فبدت عارية، قالت:

- أراك مشدوداً أمام التلفاز؟

رد بسؤال:

- أمهتمة انت بالسياسة؟

وضعت كأسي النبيذ على الطاولة وهي تقول:

- السياسة نفسها لا تعنينا في شيء، ما يعنينا هو علاقتنا بالسياسيين، أصحاب النفوذ وصناع القرار، متابعة الفعاليات السياسية تمكنني من معرفة بعض الشخصيات التي ربما احتاج اليها. فالأمر لا يخلو، ومهنتنا كما تعلم قد تحتاج في بعض الأحيان الي مثل هؤلاء درءا لمخاطر أو حتى

جلبا لمنفاع.. ثم أطلقت ضِحْكَة مائعة وهي تشير بيدها صوب التلفاز قائلة:

- العديد من هؤلاء كانوا من زبائن الكباريه، عندك مثلا حازم أبو النجا الذي يتحدث الآن، كان زبونا دائما، قطع رجله من الملهى حين سطع نجمه.. ثم وضعت حدا لهذا الحديث قائلة:

- دع عنك هذا، لم نأت من أجل الحديث في السياسة. أغلقت التلفاز، انحرفت قليلا باتجاه الكاسيت ضغطت زر التشغيل، سحبت يدي عطيه، وعلى أنغام أغنية" يا رب توبة" راحت تبدع رقصا، وَ..حبا.. لم يأبه لاكتشافه أنها ليست عذراء، ومنع نفسه من استعادة مقولتها" هذا المكان لم يدخله رجل من قبل"، فقط راح ينهل من عسلها ويذيقها من عسله. قضى عطية ليلته الأولى، وصدق بشفتيه وكل جسده على عقد التعارف.. إنها المرة الأولى التي يمارس فيها الجنس كاملا، أقصى ما وصل اليه من قبل، لمسة يد أو قبلة خاطفة يقتنصها من جارته "فاطمة".. إنها المرة الأولى، وما أدراك ما المرة الأولى! أول يوم في المدرسة، في العمل، في منزلك الجديد، أول سيجارة، أول كأس نبيذ، أول لقاء، أول لمسة، أول قبلة، أول مضاجعة.. تأبي الأوليات أن تتوه وسط كراكيب الذكريات المُخزنَة، أو أن

تتفلت من ثقوب الذاكرة بفعل الزمن.. اجتهد عطية في تنفيذ بنود عقده، فحاز القبول و الاعجاب.. وما أدراك ما الإعجاب! إنه أولى عتبات الحب..

٧

زفر حسين، هب متململاً حين أعادت أمه عليه الكلام، ألآن حان وقت القصاص يا ولدي، اسماعيل ولد هريدي صار رجلاً ، دم أبيك في رقبتك، طول عمري في انتظار تلك اللحظة، اشفِ غليلي يا ولدي، أطفئ النار المشتعلة في صدري، دم أبيك يناديك، لن يهدأ في قبره حتى تثأر له.. لا تشمت بنا أحد، الثأر ولا العار يا ولدي.. اجعلهم يقولون أن إبراهيم ولد مسعود خلف راجل.. سكتت برهة قبل ان تستفزه قائلة: ولا الجامعة إياك جعلت قلبك رهيف!..

في كل مرةٍ كانت تحدثه في ذلك الموضوع كان يخبرها أن قاتل أبيه أخذ عقابه ، حُكِم عليه بالمؤبد، ومات خلف القضبان بعد أن أمضى في السجن ما يقرب من خمسة عشر عاما، لكنها في كل مرةٍ كانت تزداد إصراراً بعد أن كبر اسماعيل ولد هريدي وأصبح ثمرة حانٍ قطف رأسها.. حين رأت تململه، تغيرت ملامحها وهمست وهي تشيح بوجهها عنه: الظاهر إن الجامعة وناس مصر غيروا

حالك. نسيت عادتنا وتقاليدنا. نسيت أباك.. ثم عادت تتوعده وتقسم:

- الله في سماه لا انت ابني ولا أعرفك حتى تبرَد ناري وتأخذ بثأر أبيك من قاتليه.

قفز هذا المشهد إلى ذاكرته، ارتفع ببصره إلى السماء، لم يصمد أمام رغبةٍ ملحة في البكاء هاجمته بضراوة، خارت كل مقاومتهِ في حبس دموعه، أجهش بالبكاء، انهمرت دموعه على وجنتيه، ساخنة، مالحة.. إن رآه أحدهم لن يصدق أن شخصاً بهذا الوجه الجاد والجسد القوي يمكن له أن ينهارهكذا ويبكي كطفل فقد أمه.. في لحظات كتلك، حين لا يراك أحد من البشر، حين لا يسمعك أحد.. ثمة خط مستقيم يصل بين السماء والأرض، إنه أقصر الطرق إلى الله. راح "حسين" يحدث نفسه بصوت مهزوم: أحقا نحن مخيرون! ثم يردف:إن كنا كذلك، فلم تُفرض علينا دروباً نسلكها؟ لماذا تُفرض علينا أشياءَ لا نُحبها؟ منذ صغري عشت مسالماً، متسامحاً، متصالحاً مع الحياة، لا أطيق رؤية الدم، أكره أن انظر إلىطير يُذبح، وإن اضطررت لرؤية مشهد كهذا، كنت أتماسك، أفكر في أي شيء، أي شيء احتمي به، أتشبث به وإن ظلت عيناي مثبتتين على المشهد. احتفظت بضعفي هذا، أطبقت عليه جوانح صدري، خشيت أن أُحدث به أحدا فيسخر مني، ابن الصعيد يخشى الدم، يالها من فضيحة!.. لذا كنت أهرب،

وأهرب.. حين قررت الذهاب إلى القاهرة لم يكن إلا هرباً من ذلك الطريق الذي يراد لي أن أسلكه رغماً عني، كنت أهرب من طريق موحل بالدم، كنت أخشي تلك اللحظة الحاسمة، لحظة المواجهة التي لا مفر منها، يوم أن أكون مجبراً على الأخذ بالثأر، مراراً حاولت أن أوارب باباً موصداً وأحدث أمي عن التسامح، غير أنها كانت تسرع وتصك الباب بعنف في وجهي، كانت رسالتها صارمة، قاطعة، ليس أمامك غير هذا الدرب، فأواصل الهرب، أهرب إلى أقصى ما يمكن أن أصل إليه، لكن، لكل شيء مهملعَبُ د حدٌ ونهاية، وقد وصلت إلى ذلك الحد، وعلي إذا أن أنفذ، علي أن أقتل، على أن أريح أبي في قبره، وأن أخمد النار المضطرمة في صدر أمي، وأن أرفع رأس عائلتي عالياً، الدم وحده هو ما يفعل ذلك.. وقد فعلت اليوم، قتلت ابن قاتل أبي، بل وقتلت إلى جواره آخرين.. في تجمعٍ لهم أفرغت فيهم رصاصات رشاشي.. علَيَّ الآن أن أعاود الفرار، لكن الفرار هذه المرة يجب أن يكون بعيداً بعيدا، بعيداً عن قلوبِ أمهاتٍ تشتعل فيها النيران، وقبورٍ لن يهنأ ساكنوها إلا بدماء جديدة..

٨

تَضْحَكُ عالياً.. يطُالعها من طرفٍ خفي، تلسعه نار الغيرة، ترمقه، يتصنع التجاهل، رائحة قلبه المحترق تأجج فيها مشاعر متضاربة، أتبتهج لغيرته تلك وهو يراها إلى جوار رجلٍ آخر، أم تخشى على حبها؟ حين لاحت له فرصة عمل في الملهى الذي تعمل به، ترددت أن تخبره.. كانت تخشى من لحظة كتلك، أن يراها إلى جوار آخرين، لكنها عادت وفكرت، إنه لأمر جيد أن يكونا سويا، ثم أن عمله سيخرجه من الحالة السيئة التي اجتاحته لجلوسه دون عمل. حزمت أمرها وأخبرته، حدثته: سترى وسترى، فلا تغضب، هذا عملي، ليس لي سواه، اقتات منه، إنما قلبي لك، لك أنت وحدك، إن كنت تستطيع الصمود يمكن أن تكون الوظيفة لك، إن كان غير ذلك فالبعد أفضل.. ورغم أنه تفهم ذلك إلا أنها تعلم أن ثمة عرق شرقي بدواخلنا لا نستطيع الفكاك منه مهما حاولنا..

كانت الساعة تشير إلى العاشرة حين دلف " طه" إلى الملهى واستقر على طاولته التي اعتاد أن يجلس عليها. كانت ريري تترقب حضوره الذي تأخر هذه الليلة. حين رأته استأذنت وغادرت باتجاهه، القت عليه مساء حارا، وبدأت معه حديثا ناعما لايخلو من الضحكات الماجنة.. احتشمت قليلا حين رمقت عطية وقد

عاد لمتابعتها رغم أن نار الغيرة لم تمس قلبه هذه المرة وبدا باشا مترقبا، "لعله اللقاء الوحيد الذي يباركه عطيه" قالتها ريري لنفسها وهي تتابعه وقد تهللت أسارير وجهه. تعلم أنه يتحرق شوقا لمعرفة نتيجة هذا اللقاء.. كان عطية قد قرر السفر إلى ايطاليا ركضا خلف حلمه، لم تفلح كل محاولات ريري في إثنائه عن السفر، العمل في الملهى لم يلبِ طموحه. أمام إصراره قررت أن تساعده، هي تعرف كثيراً من رواد الملهى، تعرف كثيراً من أسرار الزبائن، حدثته عن "طه"، يقال عنه أنه "بتاع كله" تجده مقاول أنفار، تاجر عمله، مُنقب ومهرب آثار، ضارب مستندات رسمية، سمسار للهجرة غير الشرعية.. أخبرته انها ستحدثه بشأن سفره.. وهاهي تفعل الآن..

٩

ياله من تحدٍ!.. أن تذهب إلى الموت بقدميك، أن تصارع الموت!..أي عظيمٍ يا ترى ذلك الذي يدفع المرء لتلك المعادلة الصفرية؟ أكون أو لا أكون، تلك العبارة التي نلوكها بألسنتنا دون أن يعلم كثير منا من القائل وفي أي مناسبة، حين أطلق شكسبيرعبارته الشهيرة تلك، على لسان هاملت في مسرحيته "أمير الدنمارك"، كان إعلانا بتحدٍ عظيم، خياران كلاهما مر، أن تنتقم

من عمك لقتله أبيك أو أن تنتحر، لقد استبدل المصريون أمثالا وأقوالا دأبوا عليها قديما بتلك العبارة، فلم يعد يستخدمون " أيه اللي رماك على المر" و لا "ايش ياخد الريح من البلاط"، لاَوحتى "يا صابت يا خابت" تراجعت تلك الأقوال أمام مقولة شكسبير، لقد حفظها المصريون من الدراما، وبات مغزاها دراجاً وواضحا للعامة، ولا حاجة لهم لمعرفة القائل والمناسبة، خياران كلاهما مر، وعليك أن تختار بين أحدهما، عليك أن تختار بين الحرية والعبودية، بين التسامح والإضطهاد، بين العدل والظلم، بين المساواة والعنصرية، بين الرخاء والفقر، بين الوجود والعدم، إن أردت أن تكون، إن أردت الوجود، إن أردت الحرية ، إن أردت العدل والمساواة والحياة الكريمة، عليك أن تدخل هذا التحدي، عليك أن تصارع الموت، يا صابت يا خابت، لن يكون هناك أسوأ مما هو كائن، تكون أو لا تكون، لا مجال لأن تحيا ميتا، فالحياة مع الفقر والقهر والاضطهاد والتمييز والمطاردة هي قطعا موت، ولا مانع إذاً أن تصارع الموت من أجل أن تعيش.. لا مانع أن تخوض رحلة المقامرة تلك..

في رحلة المقامرة، تعج سفن الموت بعشرات البشرعلى اختلافهم، يجمعهم هدف واحد، الفرار إلى الضفة الأخرى من المتوسط، يدفعون ما يملكون وما لا يملكون، ينتظرون أياماً على مقربةٍ من الشاطئ، يتخفون عن العيون في انتظار الساعة.. في

عتمة الليل، تأتيهم قوارب الموت، يندسون بأجسادهم في تلك القوارب البالية، يتكدسون وكأنهم يعضدون بعض في مواجهة الموت، تنطلق القوارب محملة بما لا تطيق من مآسٍ وأحلام، تضربها الأمواج الهائجة المتعطشة لأجساد البشر، لقد أدمنت تلك الأجساد التي تأتيها دون عناء فراحت تطلب المزيد ومن دون تميز، الكل لديها سواء، الكل لديها بشر، لا فرق بين دين وآخر، ولا بين فارٍ بدينه أو هارب من قمع أو فقر، أو حتى قاتلٍ فارٍ من العقاب، كلهم سواء، كلهم آدميون. حتى بياناتهم لا أهمية لها بعد أن جردهم تجار الموت من جوازات سفرهم.. ساعات مضت والقارب يجر أذياله إلى عرض البحر المخيف.. البعض يقاوم التعب وربما الخوف بتجاذب أطراف الحديث.. كان حسين في مواجهة عطيه، كانا قد تعارفا سريعا قبيل الإبحار.. أخرج عطية علبة سجائره ومد يده بها صوب حسين قائلا:

- سيجارة..

اعتذر حسين بلطف فلم يسبق له أن دخن سيجارة واحدة. التقم عطية سيجارة بين شفتيه، أشعلها بحرفية، سحب نفسا عميقا قبل أن يطلق صراح الدخان وقد حبسه قليلا بأعماقه..

- ألك أقارب في ايطاليا يا حسين؟ سأله عطيه.

رد حسين بالنفي، ثم أردف:

- حتى لو لِي، أفضل الابتعاد..
- لماذا؟

صمت حسين لحظة، كأنما يلوم نفسه على تسرعه، لماذا استرسل ولم يكتف بالنفي؟ لماذا يتطوع ويبادر من تلقاء نفسه بهذا الكلام بينما علاقته بالرجل ما تزال في مهدها؟ شعر حسين بالحرج لتأخره في الرد، فبادر قائلا:

- ربما أقص عليك لا حقا..

احترم عطية رغبته في عدم الإفصاح، و قال:

- عموما، أنا سوف أحل ضيفا على أناس هناك، لو أردت مزاملتي فأهلا بك..
- أقارب لك؟
- كلا.. إنما أصدقاء لأناس أعمل معهم.
- وماذا تعمل؟
- أنا خريج آثار وأعمل في .. تردد أن يقول "نادل في ملًهى ليلي"، قال بتلعثم: في "مطعم ... سياحي"
- صحيح الذين يعملون في السياحة لهم علاقات، لكن أتضمن أن يساعدونا؟ أقصد يساعدوك؟
- لا شيء مضمون في هذا الزمن ياعزيزي، لكن اثق فيمن أرسلني اليهم، ومن يساعد واحداً يساعد اثنين..

"على كل حال نحن معا إلى أن نصل بالسلامة"، قالها حسين وهو يضع يده على فيه، ويقاوم تثاؤبا باغته.. ثم ساد الصمت.. كل شيء كان طبيعيا حتى ضربَ الجوع أحشاء البحر وكائناته، وتضامنت معهم الريح العاصف فزمجرت ودفعت الأمواج بعنف باتجاه القارب، الذي بدأ يتمايل وتتمايل معه أحلام هؤلاء، عَلَت الصرخات والاستغاثات، صلوات وتضرع ودعاء تقاطعت فيه اللهجات والديانات، كلها تطلب النجاة، تبعثرت الأجساد حين انقلب القارب وتداعى الأقارب والمعارف بأسمائهم.. تشبث عطية بيدي حسين القويتين، يحثه أن يساعده، أن يقف إلى جواره.. تراجعت الرياح، خفت الأصوات حتى تلاشت، هدأ البحر وسكنت الأشياء، ابتلعت العتمة الجميع.. كان القمر الحزين يتابع المشهد في صمت وأضواء أخرى مرتعشة لسفينة إنقاذ تتلمس الطريق، تشق العتمة على استحياء باتجاه موقع القارب الغارق..

١٠

إنها حقا مدينة المتناقضات.. مدينة الموت والحياة، وما بينهما. هذا التنوع الرهيب، هذا التفاوت الذي قد يصل حد التنافر، يمنح القاهرة تلك الخصوصية وذلك التفرد، الشوارع والأحياء التي لم تحسم هويتها بعد، صراع الثقافات، الأبنية، وسائل المواصلات،

الأطعمة، الأزياء، وكل شيء. حين تفشل الحداثة في استيعاب الجميع، يصبح المشهد فوضويا، عبثيا، َو..مألوفا.. ترى بيتا قديما يناطح برجاً، تختلط عليك روائح الأطعمة، الأسفلت تتنازعه السيارات الفارهة وعرابات الكارو، أناس يرتدون الماركات من الملابس إلى جوار عرايا يفترشون الأرض.. كانت الشمس تهم بالرحيل عندما استيقظ عطيه، خرج متكاسلا من غرفته، تحرك ببطء خطوات عدة باتجاه السور، للحظات راح يطالع القاهرة من أعلى البناية التي يقطن سطوحها. تسعده تلك اللحظات. منذ قطن في تلك البناية الشاهقة وهو يداوم على تلك الجلسة ما استطاع قبل أن يغادر إلى عمله. حين استأجر هذا المكان شعر أن الحظ يغازله. فرغم أن الأبراج الحديثة أزاحت تلك البناية العتيقة عن عرشها إلا أنها مازالت عفية، تحتفظ بشيء من شموخها، صامدة في وجه الزمن، الحصول على غرفة في عمارة كتلك في قلب القاهرة وبإيجار معقول أمر يثلج الصدور.

ألقى عطية بنفسه على كرسي مهترأ، فتح مظروفا بيده وراح يمسحه بنظراته:

السيد المحترم / عطية سعيد أحمد ...

نظراً لانقطاعكم المتواصل عن العمل لمدة تتجاوز..... دون عذر وحيث أنه سبق إخطاركم .... للتحقيق يوم ... ولأنكم لم تمثلوا أمام..... نفيدكم علماً أنه تم فصلكم نهائيا ...."

أمسك بالخطاب والمظروف وقطعهما قصاصات وألقى بها إلى الشارع، أغمض عينيه واسند رأسه إلى الكرسي..

التحق عطية بالعمل في المتحف المصري بعد شهورٍ من رحلته الفاشلة إلى ايطاليا، تلبسته الحماسة حين استلم قرار التعيين، ظن أنها نقلة نوعية، وأن باب الثراء قد فُتِح له على مصراعيه، مجاورة السعيد تُسعِد، ومجاورة تلك الكنوز تُغني، غير أن همته فترت بعد أشهر، ولم يعد منتظماً في الحضور. كان دائم التأخير، إلى إن انقطع تماماً عن الحضور. حدث ذلك حين جاءه المارد في نومه للمرة الثالثة، لم يلتفت لذلك الإنذار الذي يتوعده بالفصل ولم يقدم مبرراً، فكان الفصل النهائي.. لم يهتم عطية ولم يأسف لقرار فصله. لقد ظن يوما أنه سيستفيد من قربه من تلك الكنوز، خَيَّل إليه شيطانه أن بإمكانه أن يستولي بطريقة أو بأخرى على أي من محتوياته، غير أنه وجد الأمر مستحيلا، كما أن راتبه لم يكن يغطي حتى نفقاتِ سجائره.. كان عليه أن يختار بين عمله في الملهى الذي عاد اليه براتبه الأعلى وبين عمله بالمتحف، عمله بالملهى كان يؤثر على عمله في المتحف، عمله بالملهي يتطلب سهراً، يعود منهكاً، ينام متأخراً، يصحى متأخراً، يذهب إلى عمله في المتحف متأخرا، تتراكم عليه العقوبات، فهل يأسف على قرار كهذا؟.. يكفي أنه تحرر من ذلك الالتزام الذي كاد يخنقه.. قالها عطية لنفسه.

١١

ليس أقسى على المرء من أن يهرب إلى سجن هو سجانه، أن تكون في سجن اختياري، بيدك مفاتيح محبسك، ورغماً عن ذلك لا تستطيع أن تتحرر وتنطلق إلى حيث تشاء، متى تشاء، ياله . إذاً . من سجن قاسٍ، وَ.. مذل.. كان هذا حال حسين عندما عاد مجدداً إلى محبسه، إلى تلك الغرفة الرطبة التي يقطنها لدى أقاربه في إمبابة، تلك الغرفة التي تضيق به، حتى أنها تكاد تطبق على أنفاسه، لكنه لا يعلم مأوًى آخر، هو يشعر أن الخناق بدأ يضيق عليه، يشعر أنه بات هدفاً سهلاً لطلاب رقبته، يشعر أن طلاب رأسه يحيمون حول تلك المنطقة، كان عليه أن يغادر سريعا، لكن إلى أين؟ لم يكن يعلم.. حين يفلس التاجر يبحث في دفاتره القديمة، حين يضيق بك الأمر، تكتشف أشياءً كانت غائبة عنك، حين يضيق بك الأمر قد تقُدم على خطوات لم تفكر فيها يوما.. عطيه.. نعم عطيه.. قفز اسم عطية إلى ذهن حسين دون تمهيد مسبق، شعر أنه يمكن أن يكون مأوى آمن، علاقته به لا يعلمها أحد، هما لا يلتقيان، لم يتواصلا منذ أن جعله الله سببا في إنقاذه. كان حسين قد اعتذر لعطيه حين طلب منه رقَم هاتف له، خشي على نفسه وعلى أولاد عمومته فلم يعطه رقم هاتف ولا عنوان. يومها كان عطية ما يزال تحت تأثير الفضل والمعروف فأعطاه رقم

هاتف يمكن له أن يتواصل معه من خلاله. يومها أخبره أيضا أنه تحت أمره وأن خدمات الدنيا لا تضاهي إنقاذه له. ورغم أنه غير متيقنٍ من موافقة عطية على استضافته، لاسيما أن الأمر قد مر عليه بعض الوقت، إلا أنه قرر أن يطرق بابه، لا خيار آخر أمامه، فليذهب إليه وليعرض عليه الإقامة عنده ريثما يجد مأوى آخر أو يعاود الكَرَّة من جديد ويهرب إلى الخارج... إنه خيار المضطر..

١٢

رغم قراءاته العديدة، لم يقرأ عطية شيئاً عن الفيلسوف الفرنسي "رينيه ديكارت"، صاحب المقولة الشهيرة "أنا أفكر إذاً انا موجود"، ولا عن مذهبه المعروف بـ"الشك الديكارتي"، ذلك الشك الذي يبقي العقل في حالة استنفار دائم، فبالعقل والتفكير تستطيع التأكد من وجود الأشياء من عدمها، هذا الشك أصاب عطيه.. فرغم تكرار الحلم ثلاث مرات بذات التفاصيل، ظل الشك يساوره، وظل عقله مستنفراً، يفكر، إن كان الأمر حقيقياً فتقاعسه لن يفُوت عليه فرصة الحصول على الكنز فحسب، وإنما أيضا سيودي بحياته وحياة من معه.. عليه إذاً أن يقتل الشك باليقين، عليه أن يتأكد، لكن ممن؟ لايدري.. كان حريصا إلى أقصى مدىً، كان يخشى أن يتسرب الأمر إلى آخرين، لقد اشترط

المارد شروطاً من بينها ألا يعرف بالأمر غير ثلاثة أفراد أو مضاعفات الثلاثة، كل خطوة إذن يجب أن تكون محسوبة بدقة، كل خطوة تحتاج للتفكير عشرات المرات، النقلة الخاطئة تعني موت الملك.. مرَّ الوقت سريعا، شهر مضى من المهلة المتاحة دون أن يحرك ساكناً، كل ما فعله أنه أمضى أوقاتا طويلة يقرأ عن الكنوز والخبايئ، يبحث في كل شيء، في الكتب، المجلات، الصحف، البرامج، الأفلام، وكل شي. لقد اكتشف عالماً آخر، عالما يكتنفه الغموض والرهبة، عالما أشبه بالأساطير، تفوح منه رائحة التاريخ التي تتقافز شخصياته أمام ناظريه، فيرى فرعون بعظمته وهيبته وجبروته، ويرى المصريين وقد سجدوا عبيداً للفرعون، يسُخرهم لتحقيق أمجاده، قرى بأكملها تُسخر ربما أشهر أو سنوات لتشييد مقبرة هنا أو هناك، تُخلد وتُمجد انتصارات الفرعون أو حاشيته. الغريب أن كل المعلومات التي استقاها لم يعثر في واحدة منها على تدوينة عن أي انكسارات أو هزائم، كانوا فقط يدونون الانتصارات، وكانوا يشيدون المدافن بما يليق بكل منهم، يجمعون فيها ثرواتهم وكل ما من شأنه أن يعينهم في رحلة الانتقال إلى الآلهة والخلود الدائم، كانوا يعتقدون في البعث من جديد، فكانوا يحفظون أجسادهم محنطة لحين عودة الروح من جديد، كانوا يجعلون على مدافنهم حراسا، أوفياء، أشداء، لحماية أجسادهم ومقتنياتهم، وقد تحوي المقبرة على حارسٍ أو أكثر.. لم يكتف عطية بالبحث في

هذا العالم المترامي الأطراف، وإنما بحث أيضا عن الرقم ثلاثة، كان لافتا أن يخرج عليه المارد ثلاث مرات، في الساعة الثالثة، لليوم الثالث من الشهر الثالث، كان لافتا أن يشترط ثلاثة أفراد أو مضاعفات الثلاثة، ثلثهم من النساء.. كل هذا دفعه للبحث في أمر الرقم ثلاثة، ويا لغرابة ما وجد..

١٣

لم يكن عطية يعلم من قبل أن للأرقام كل تلك الأهمية، لكثرة ما قرأه عنها في رحلته البحثية تلك، خيل اليه أن الأسماء على شفى الاندثار، وأن الأرقام تزحف باتجاه أن تحل محلها، اجتزأ ضحكة ساخرة وهو يردد: قريبا ربما يدعوني البعض بـ"سبعة ابن خمسين" عوضا عن "عطيه بن سعيد"، ولم لا وقد استبدلت الأسماء بأرقام البطاقات تفاديا للمشاكل التي قد يسببها تشابه الأسماء.. في رحلته البحثية تلك كان للرقم ثلاثة نصيب وافر منها..

الرقم ثلاثة أو كما يقال في اللغة العبرية "شالوشا".. ورد بلفظ واحد في جميع اللغات الساميّة، ففي اللغة العربية (ثلاثة)، وفي اللغة

العبريّة (شالوشا)وفي اللغة الآراميّة (تالاشا)وفي اللغة السريانيّة (تالاسا)[1].

رقم وتر، يفيد الكثرة والنماء، ارتبط بالتفاؤل، والتعزيز، والنصر.. الديانات السماوية وكتبها ثلاثة. مراتب الدين ثلاثة. ثلاث من كّن فيه وجد حلاوة الإيمان. ثلاث يضحك الله إليهم. غُسل الأعضاء في الوضوء ثلاث. التسبيح في الركوع والسجود ثلاث مرات. الظلمات ثلاثة. العورات ثلاثة. الطلاق ثلاث. أيام التشريق ثلاثة. وما يتبقى للعبد من عمل بعد موته ثلاث. والعدة ثلاثة أشهر. وعاقب الله قوم صالح بعد ثلاثة أيام. والناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: أصحاب يمين، وأصحاب يسار، وسابقين. الزمن: ماضٍ، وحاضرٍ، ومستقبل. مراحل الإنسان ثلاثة: طفولة، وشباب، وشيخوخة. و تقسيم الأشياء إلى مقدمة ووسط ونهاية يكون أكثر فهماً. والرؤية الثالثة هي الأكثر قابلية للتنفيذ. ويقولون تفاؤلاً بالمحاولة الثالثة "التالتة تابتة". ولتغليظ الأيمان يُقْسم ثلاثا. وجزيئات الذرة ثلاثة. حالات المادة ثلاثة. والأرض التي نحيا عليها هي الكوكب الثالث في النظام الشمسي. وأقوى البنى الهندسية المثلث. والأهرامات ثلاثة وكل منها مجموعة مثلثات. وللتعبير عن الأجسام يلزم علي الأقل ثلاثة أبعاد.

---

[1] المصدر: الانترنت

ولتحديد المكان يلزم علي الأقل ثلاثة محاور. وفي المسيحية هناك الثالوثُ الإلهي. والإنسان كائن ثلاثي: جسد، ونفس، وروح. ورفع الله تعالى نبيه عيسى اليه بعد ثلاث سنوات من دعوته. والكتاب المقدس اليهودي ينقسم لثلاثة أقسام... انبهر عطية من كم المعلومات الهائل عن الرقم ثلاثة ومضاعفاته، لم يتوقف عند دقة بعضها، فهو يعلم أن مصادر المعلومات كالدنيا تماماً، لا تخلو من الخبيث.. ما استوقفه كثيراً في تلك المعلومات، هو ما قرأه عن تقديس العبرانيين للرقم ثلاثة، فالكون ثلاثة: سماء، وأرض، وبحار. وما قيل أن كنز قارون كان ثلاث مِئة وثلاث وستين تحفة باهظة الثمن، كان يحملها ستون بغلا، وأن قصره مكون من ثلاثة طوابق وبه ثلاث مِئة وستة وثلاثون غرفة، وقارون الذي قيل أنه عم أو ابن عم موسى، عليه السلام، كان وزيرا لشؤون العبرانيين. ربط بين كل هذا وكنز قارون فشعر بالتفاؤل وإن شابه شيء من القلقِ لما قرأه عن العدد ثلاثة وثلاثين لاسيما أن شهوراً تفصله عن عامه الثالث والثلاثين.

١٤

عبأ رئتيه بدخان سيجارته، ارتفع برأسه قليلا ينفث الدخان بقوة، يحدق به وهو يندفع لأعلى باتجاه سقف الغرفة، عاد وهبط

ببصره، تسمرت عيناه في المرآة، يتأمل منحنيات تلك الهضبة الراقدة إلى جواره وقد انحسر الغطاء عن ساقيها المتباعدتين، مسح بنظراته قدميها، كانتا كحمامتين وديعتين، منذ عمل لفترة في أحد محلات الأحذية تولدت لديه قناعة أن جمال جسد الأنثى ُمنح لذوي المقاس ثمانية وثلاثين، رويداً تخطى كعبيها الحمراويين باتجاه سمانة الساق، تثيره تلك المنطقة كثيراً.. تمددت ببطء، وكأنما أيقظتها نظراته الخشنة، دفعت الغطاء بقدميها فبدت عارية، تأمل هذا الجسد وراح يهمس لنفسه: امرأة على مشارف الثلاثين، بهذا الجمال، ينحني تحت قدميها يوميا عشرات الرجال، علام تحبه؟! لم يجد إجابة. عاد إلى نفسه وقد استقرت برأسها على كتفه، تعبث أناملها برقة بشعيرات صدره النافرات. ألقت عليه تحية مفعمة بغنج يعشقه. طالعت ساعة الحائط بعينين تقهران آثار النوم. أبدت دهشتها، الساعة لم تتعد الرابعة عصرا! ما زال الوقت مبكرا على موعد خروجهما إلى العمل، تساءلت:

- ما الذي أيقظك الآن؟

لم تنتظر رداً بعد ما تبادر إلى ذهنها السبب الأكثر احتمالا، فسارعت: لعله ذات الموضوع؟

أجاب بهدوءٍ لا يعكس حجم القلق بداخله:

- هو لا غيره.

- قلت لك، عليك بالشيخ نبيل..

أخذ نفساً آخر بعد أن التفت يمينا ليجنبها دخان سيجارته المتطاير، أخرج الدخان وألقى بالسيجارة في كوب تقطن قاعه بقايا شاي أسود ثقيل.. ثم سحب نَفْسه ونهض سريعا كأنما تذكر شيئا ما، ارتدى ملابسه في عجالة.. تمطت من جديد وهي تسأله عن وجهته، لم يهتم وخرج مسرعاً.. لم يكن يعلم إلى أين يتجه، فقط شعر أنه يريد أن يخرج، يريد أن يتخفف من وطأة ذلك القلق الذي يجتاحه، لم يفكر في عمله الذي تفصله عن موعده ساعات عدة. الوقت يطارده، المهلة تتآكل ولم يحرك ساكنا. ارتباط الأمر بحياته جعل الأمر أكثر جدية، عليه أن يأخذ خطوات إلى الإمام، عليه أن يلقي حجرا في المياه الراكدة. مرور الوقت دون أن يفعل شيئا يضاعف من توتره، يجعله أكثرعصبية.. لكنه لا يعرف إلى أين يتجه وماذا يفعل، فكر مرات أن يذهب إلى شيخ أو أحد العاملين في هذا المجال غير أنه تردد كثيرا. اشتراط المارد السرية الا من ثلاث أو مضاعفاتها أحد أسباب تردده، من يضمن له أن هذا الذي يذهب اليه لن يفشي سره؟ من يضمن له أنه لن يطمع في الكنز لنفسه؟ الأسئلة المتدفقة في داخله، لم تستثن سؤلا ربما كان الوحيد الذي يعلم إجابته: لماذا إذا أخبرت ريري؟ تأتيه الإجابة سريعا، لأنها تحبه، تعشقه، ومن يعشق لا يخون ولا يفشي سرا.. سار عطية طويلا حتى نال منه الإرهاق.. كان محبطا، مهموما، تكسو

وجهه علامات الحزن. جذب انتباهه مقهى قريب، كان المقهى هادئا؛ ما يزال في انتظار رواده كعادة المقاهي في ذلك الوقت، ربما شجعه ذلك لالتقاط أنفاسه، هو لا يريد أن يراه الناس على هذا الحال، ورغم ذلك لم يجلس على مقعد داخل المقهى؛ لم يكن في حاجة إلى مزيد من الضيق. ألقى بجسده المنهك على مقعد في مواجهة الشارع، أسند جبهته إلى يسراه المتكئة على طاولة أمامه، أغمض عينيه، ترك أصابعه تعبث بجبينه وتتحسس موضع صداع حاد ألمَّ به. لم يتوقع أن يأتيه النادل سريعا على هذا النحو، أو أنه ربما لم يشعر بالوقت الذي مر سريعا. طلب قهوته المحوجة علها تعيد اليه توازنه، لكنها لم تفعل، حتى السيجارة التي أشعلها لم يشعر لها بطعم، ألقاها كعادته في الكوب لتعانق بقايا قهوته. نهض واقفا حين بدأ رواد المقهى بالتوافد، لم يكن قد حدد وجهته بعد. انجرف مع تيار التائهين الذين تعج بهم الشوارع، لم يتسرب إلى الشوارع الفرعية، لم يكن يشعر بالحركة من حوله. توقف فجأة ثم غير مساره، لقد قررعطيه أن يلقي حجرا في المياه الراكدة و يخطو خطوة للأمام، خطوة قد تضع حدا لقلقه. دبت الهمة في جسده، تسارعت خطاه وقد استقر أخيرا على وجهته..

١٥

في بقعة مظلمة، مستثناة من الأضواء الخافتة التي نثرت الغموض في غرفته، جلس الشيخ نبيل على كرسٍ مرتفع خلف منضدة دائرية، جاحظ العينين، يرتدي عباءته البنية المذهبة فوق ثوب أبيض حليبي، يلف رأسه بعمامة خضراء، لحيته المتدلية من وجهه الأبيض المستدير والتي تسرب اليها شيء من الشيب، والمسبحة الطويلة في يده تضفيان عليه مزيدا من الهيبة.. الصمت يلقي بظلاله، تجلس أمامه مشدوهة، تتابع ما يحدث بإجلال حد التقديس.. يضع مزيدا من البخور على النار، يعاود الدخان الصعود بكثافة، ألسنة اللهب المتصاعد تنعكس على وجهه. يقطع الصمت بكلمات لا تعي منها شيئا، يرتفع صوته بآيات قرآنية، يخاطب أشخاصاً لا وجود لهم.. يدنو من الصبي الذي لم يتجاوز التاسعة، يلتقط كفه الأيسر، يرسم عليه مربعا بقلم أزرق، يكتب حول المربع أشياء، ثم يضع بعض الزيت وسائلا أزرق داخل المربع،.يلتقط ورقة مستطيلة إلى جانبه، يخط شيئاً ما داخل المستطيل، يثبت الورقة على رأس الصبي المستسلم تماما، ثم يدثره بغطاء ثقيل، يعاود قراءة أشياء أخرى، يتشنج الصبي. شاخصة عيناها تتأمل الطفل وقد قبضٍ على كفه الأيسر فَتَعالَى منه دخان أزرق باتجاه وجهه. الورقة تحترق،والشيخ يتابع كمن يتحرى لحظةً

بعينها.. يضع المزيد من البخور؛ كما الدخان تتصاعد ألسنة اللهب المتوهجة، تتبدل قسمات وجهه الذي اكتسى حدة وحمرة، عيناه تكاد تخرج من مآقيها، يسأل الصبي:

- ماذا ترى؟

يجيب بصوت خشن كأنما لصوت غير صوته:

- أرى صورة رجل.

- انقل اليه سؤالي هذا: من الذي سرق الذهب وأين أخفاه؟

حين أجاب عليه، ابتسم الشيخ ابتسامة شاحبة،غمغم و تمتم بأشياء، ثم هدأ كل شيء، وعاد إلى سيرته الأولى. السيدة تهم بالخروج، تشكر الشيخ، وتردد في امتنان:

- كنت واثقة إن حاجتي مقضية على يديك، بارك الله فيك يامولانا.. خرجت تغمرها الفرحة وتدعوا للشيخ بصوت عالٍ شد انتباه عطية المنتظر لدوره في الخارج ومنحه شيئا من الطمأنينة في قدرات الرجل. تابعها عطية للحظات قبل أن يطرق الباب مستأذنا في الدخول. حين دخل أطلق سلاما يخالطه الدهشة مما يرى، وقبل أن يقول أنا من طرف الست ري... قاطعه الشيخ بثقة:

- مرحبا بك ياعطيه يابن سكينة.

كاد يغشى عليه من المفاجأة، لا أحد يعرف اسم أمه حتى ريري!

١٦

الميكروباص يلتهم الطريق في صمتٍ لا يجرحه غير هدير المحرك، النوم تمكن من الركاب، وحده عطية ظل مستيقظا، يطالع اللاشيء عبر النافذة.. لم يتوقع أن يعود يوما إلى قريته بالفيوم وهو الذي غادرها فاراً بعد أن ارتكب جريمته، كان يتحسب من لقاء أبيه، وبأي وجه يلقاه؟ لا يساوره شك أن والده يعلم أنه لاغيره من ارتكب الحادث، لكنه قطعا لن يكون سببا في سجن ابنه الوحيد.. بل أنه ربما سعى لإبعاد الشبهة عنه أمام فاطمة، يدعم ظنونه تلك أن الشرطة لم تستدعه، صحيح أنه لم يخبر أحدا بمكان وجوده، لكن الشرطة إن أرادت أن تصل اليه لفعلت.. شعرعطيه برأسه وقد انتفخ من فرط التفكير، أسند رأسه على نافذة الميكروباص سعيا لقطع الطريق على سيل الأفكار المتدفق، لكنه لم ينجح، صعوبة المواجهة المرتقبة مع أبيه دفعته لاستحضار آخر لقاء جمعهما.. يومها ظلا صامتين لفترة من الوقت، وكعادة أبيه، ظلت شفتاه ممطوطتين قليلا دون أن تنفرجا فيما يشبه الابتسامة الساخرة أو المتحسرة، بادره عطية بالحديث:

- أعلم أنك لازلت غاضبا، لكني لن أكون أنت، لن أكرر تجربتك.. عشرات السنوات قضيتها على مركب صيد، بالكاد تفي باحتياجاتنا اليومية، وحين مرضت أمي، وضاقت بك الدنيا قررت أن تبيع القارب لتنفق على علاجها، رفضت أمي بشدة، لأنها تعلم مدى ارتباطك بالبحيرة والمركب والصيد، ولكن رفضها لم يكن ذي جدوى بعد أن بعت القارب دون علمها، وفي اليوم الذي َعلَمت به، قتلَنا، وكأنها كانت تحاول أن تحفظ عليك مالكَ، َتركَتِ لك ثمن القارب. لكنك لم تعد قادرا على العمل.. لماذا لا تساعدني؟! ساعدني لأتحمل المسئولية، أمنحني المال لأسافر، لقد اتفقت على كل شيء، سأسافر إلى ايطاليا، هناك العمُل بالساعة، بل بالدقيقة، هناك يمكن أن أحقق الثروة التي طالما حلمت بها، بالمال وحده يمكن أن أكون سيدا.. وسأكون..

يومها ظل والده على حاله، لم يغادره الصمت، كما لم تغادر شفتيه تلك الابتسامة الباهتة، وحده صوت عينيه يأتيه صاخباً، محملاً برسالة عتاب قاسية: منذ صغرك ـ يا ولدي ـ كنت ناقماً على كل شيء، على مطعمك ومشربك وملبسك، وعيشتك وحتى على أهلك، كنت تمني نفسك بالثراء الفاحش، تقتني وتقرأ الكتب ذات العلاقة، حفر قارون اسمه في ذاكرتك، ليس لقرب البحيرة منا، ولكن

لثروته، أردت أن تدخل الآثار وقد دخلت، تخرجت وأردت أن تستقر في القاهرة وقد فعلت، لم تكن تعلم كم كان الأمر شاقاً علينا، لكننا لم نشأ أن نؤذي مشاعرك، رفضت الإقامة هنا، قلت أن القاهرة بابكُ للثراء، وتركتني حتى بعد رحيل أمك، تركتني هَِما، وحيداً.. وحين عدت، لم يكن من أجل رجل ترك الزمن بصماته عليه، ولكن لتطلب نقوداً هي محفوظة لك إلى أجل..

كان عطية ينصت لتلك الرسالة حين انهارت جدر الصمت على يد طرقات قوية، التفت دهشة نحو الباب، انتقلت عيناه سريعا إلى والده، كان لا يزال على حاله، فزادت دهشته وقد سمع قلقلة مفتاح يعبث بكالون الباب، تلاها تكتين. هب مسرعاً صوب الباب، غير أن الباب كان قد فُتِح ودخل عليهما من اقتحم صمتهما.. إنها فاطمة، جارتهم، حبه الأول، أو هكذا كان يقنعها عندما يختلي بها. كان يتحين وقت مغادرة والدها إلى عمله، ليدخل هو باسطواناته، يبوح لها بحبه، يبني لها قصوراً ينسجها بخيوط العنكبوت، يلتهمها بنظرات مغموسة بالشهوة، ورغم ذلك تظل عصية على رغباته الحيوانية إلا من لمسة خاطفة أو قبلة مسروقة يظفر بها. حين دخلت فاطمة واصطدمت عيناها بعينيه، أصابها ما أصابه من الدهشة، توقفت للحظات ترمقه قبل أن تضع أمام العم سعيد صينية عليها بعض المأكولات، فتدلت أربع غوايش ذهبيه تداعب بعضها، محدثة صوتاً حرصت فاطمة على أن يكون

عاليا، بتعمدها هز وتحريك يدها. توقف عطية عند تلك الغوايش التي غطى رنينها على دهشته، لم ينصت إلى أبيه وهو يمتدح فاطمة التي اعتادت السؤال عليه، ويحمد الله أن عوض صبرها خيراً بذلك العريس الذي عقد عليها وسوف يصطحبها معه إلى الخليج.. لم يقف عطية عند خبر ارتباطها، ولم ينصت لأبيه وهو يبرر منحها نسخة من المفاتيح لتطمئن عليه من وقت لآخر خشية أن يموت ولا يسمع به أحد، وإنما كان ينصت فقط إلى شيطانه، شيطانه الذي ظل يغازله إلى ما قبل الفجر، يومها ارتكب عطية جريمته، لم يذكره آذان الفجر بالعقاب الذي ينتظره في الآخرة، ولم تشفع للرجل أبوته ولا شيخوخته، حين سطا عطية على مال أبيه ولثم نفسه وقفز إلى البيت المجاور، لم يكتف وقتها بتجريد فاطمة من ذهبها وإنما أيضا جردها من أعز ما تملك، جردها من الشرف.

١٧

وصل إلى الفيوم والشمس تلفظ أنفاسها الأخيرة، حين دخل لم يستغرب الصمت الذي فرض سطوته على المنزل، تحرك قلقا باتجاه غرفة أبيه، لم يجد له أثراً. "ترى: أين ذهب؟" سأل نفسه، لم يجد إجابة. انزوى على أريكة متهرئة، يتأمل صورة لأبيه معلقة على جدار الحائط، تزكم أنفه رائحة أزالها من ذاكرته منذ فَرَّ هارباً من

ذلك المنزل، حدَّق في الصورة فإذا بها تتحرك، فرك عينيه ثم أعاد النظر، كاد يجن حين رأى تلك الشفتين اللتين طالما أصرتا على أن تستر عورات أسنان لعب بها الزمن وتركها أطلالا، تتخليان عن عاداتهما وتتسعان على مصراعيهما وتفسحان الطريق لخروج كل تلك القهقهات التي يتردد صدها ربما في قاع البحيرة.. لقد سمع عن الأرواح والأشباح، لربما سكنت هذا المنزل، بيت معزول، غير بعيد عن بحيرة قارون بغموضها وهيبتها.. تراجع عطية إلى الوراء ينسحب رويدا بحثا عن نهاية الأريكة، حيث الباب، غير أنه توقف حين سمع صوته وقد تخلى عن وهنه ورقتهوبدا حاداً قوياً على غير العادة، يسأله:

- أخائف أنت يا عطية؟

لم يزد السؤال "عطيه"غير مزيد من الانكماش والتكور، لقد بدا له بكامل هيئته، بجسده الضخم وعوده الفارع الطويل وعينيه السوداويين، وكفه الكبير ذي الأصابع الطويلة، لقد بدا في كامل صحته وشبابه، حتى شَعرِه تخلى عن بياضه، رآه يتجه نحوه بتؤدة، يخاطبه:

حين كنت مثلك في الثلاثين من عمري، كنت أعمل صيادا، اقتات بشرف، أبذل الجهد وأرضي بما قسمه الله لي، تزوجت أمك، وانتظرنا طويلاً أن يرزقنا الله بالذرية، لم نطلبها، فالعطية لمن لا يطلبها، إلى أن حانت اللحظة وكانت العطية، لم ندرك وقتها أن

من العطايا ما هو ابتلاء، وقد كنت ابتلاءنا، أردت أن تكون غنيا، تردد: " أن تملك المال فأنت سيد وَمن دونك عبيد"، أردت أن تكون سيداً منذ أن كنت صبياً لم يتجاوز عمرك خمسة عشرعاما، قرأت كثيراً عن العبودية عبر أزمنة غابرة، وتوصلت إلى أن المال سلطان، ومن لم يأتك به طوعاً أتاك عبداً مرغما، لم تتوقف في سور القرآن التي حفظت إلا ما تعلق منها بالمال، توقفت كثيراً عما جاء في القرآن أن المال زينة الحياة الدنيا، وأنه مقدم حتى على البنين، توقفت عند فرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى، وتوقفت طويلا عند قارون وأمواله التي ينوء أولى العصبة بحمل مفاتيح خزائنها.. كنت تقف طويلا أمام البحيرة التي تحمل اسمه، ورغم أنك سمعت كثيرا أنه لا علاقة لها بقارون، إلا أنك كنت تقرأ وتنصت بشغف لما يشاع عن كنوز قارون بباطنها، بل أنك رحت مراتٍ تبحث عنها مع آخرين رغم أنك لا تجيد السباحة وكدت تغرق في إحدى محاولاتك تلك، لم تغادر كنوز قارون مخيلتك، وحين تخرج إلى الشارع، لم تفقد عادتك القديمة، التي لازمتك صغيراً حين قرأت قصة ذلك الرجل الذي عثر على الأرض على مبلغ من المال، فظل باقي عمره ينظر إلى الأرض طمعاً في المزيد، كان لديك اليقين أن الأرض التي ارتبطت بالسخرة ستحقق يوما لك السيادة، ستمنحك المال، كنوز فرعون في باطن الأرض وذلك الرجل وجد المال على الأرض، الأرض التي تجذب الأشياء جذبت

عينيك إليها، والأرض في نظرك هي كل سطح، فقيعان المحيطات والتوابيت والباصات والسيارات وبلاط الشقق أراضٍ، وكل أرضٍ دونها أو فوقها أسرار لا تبيح بها إلا لمن يقع عليه الاختيار، وقد وقع الاختيارعليك، فإلى مصيرك المحتوم يا عطيه.. حين اقترب منه، ورفع يده عالياً وبدا وكأنه سيصفعه على وجهه، فَرَّ "عطيه" خارجاً، تترامي إليه صوت قهقهاته..

١٨

هناك، على مقربة من تلك البحيرة، وفي منزل هجر الضجيج وآثر الاعتكاف منعزلا، بعيداً عن تلك البيوت المتناثرة إلا من بيتٍ مجاورٍ يؤنس وحدته، جلس عطية حبيس أفكاره، يشغله غياب أبيه عن موعده الذي لم يتبق عنه سوى سويعات قليلة، لايعرف أين ذهب، حين دخل غرفته وطالع صورته المعلقة على الحائط، تسرب اليه احساس أن والده ربما مات، لكنه عدل عن ذلك حين خاله يتحرك. طرد سريعا شعورا بالخجل داهمه حين لم يحزن لاحتمال وفاة أبيه. عاد وفكر في موعده حيث لا مكان للعاطفة، لا شيء يجب أن يعرقله عن هدفه، العواطف لا تصنع مجدا ولا سيادة، انظر إلى حالنا؛ لانستطيع إدارة عواطفنا، نغلب العاطفة على العقل، سريعي الغضب سريعي العفو، سريعي الحزن سريعي الفرح.. لأننا عاطفيون فنحن في ذيل الأمم. كلمة أو إيماءة سلبا أو إيجابا تشغلنا وتهدر الأوقات والطاقات، نثور على المستبدين ثم نسارع و نتعاطف معهم عند محاكمتهم، شهادة المرأة ناقصة لعاطفتها فما بالك إن أصبح رجالنا من حكام وباحثين وقضاة ورجال أمن وغيرهم عاطفيين! هل نرجوا وقتئذ تقدما؟! عليه أن ينحي العاطفة جانبا.. تلك القناعة كانت حاضرة في ذهنه بقوة حين أخبرته فاطمة أن والده بالفعل قد مات، لدرجة أنه لم يفكر وقتها في

الأمر قدر تفكيره في كيف عرفت فاطمة بوجوده، ربما شعرت به أو أنها شاهدت الإضاءة أو رأته مصادفة وهو يفتح الباب.. قرعت الباب بعد وقت من قدومه، ثم دخلت، ما تزال تحتفظ بنسخة من المفاتيح، رمقته بنظرة عتاب قاسية وبصوتٍ معجون بالوجع قالت وهي تطالع صورته المعلقة على الحائط:

- توفي بعد أيام من مغادرتك.. لم نستدل لك على عنوان.

حين لم يتجاوب معها، وظل على صمته، سألته:

- أتريد شيئا؟

هز رأسه نافيا:

- لا.. شكراً.

استأذنت وانصرفت..

جلس سويعات تتقاذفه الذكريات حتى جاءَ الموعد، تسلل خارجا، وفي ليلٍ صبغ الكون بظلمته إلا من أضواء متناثرة ونجمات بعيده، وقف في ذلك الفضاء الممتد، مستدبرا سور منزل فاطمة، مستقبلاالخَلاء، وحين أشارت ساعته إلى تمام الثالثة فجرا، استدار باتجاه سور المنزل مستدبرا الخلاء فإذا بشجرة وحيدة كأنما يراها لأول مرة وغير بعيد قط أسود تبرق عيناه. ارتعد عطيه، وسرت في جسده قشعريرة حين اصطدمت عيناه بعيني القط، انحرف يسارا وهرول باتجاه منزلهم.

كان عطية قد ذهب إلى الشيخ نبيل إثر توصية من ريري، أخبرته وقتئذ أن الحل لديه. ذهب إليه متشككا، حين قص عليه الحلم، طلب منه أن يذهب إلى المكان الذي حدده المارد في الثالثة فجرا، نفس توقيت ظهوره، وقتها سأله عطيه:

- ألن تكون معي؟

رد بالنفي، طالباً منه أن ينفذ ولا يسأل. لم يملك عطية غير الرضوخ لما يؤمر به، انتظارا للنتيجة..

١٩

من المهم لك أن تقرأ الآخر، سيساعدك ذلك كثيراً على أداء مهامك بكفاءة عالية، تلك القناعة ترسخت لدى الشيخ عبر ممارساته الطويلة، عمله يتطلب أن يقرأ بدقة ما يدور في خلد كل من يجلس في حضرته، حين جلس عطية بين يديه، يصغي اليه بكل جوارحه، قرأ اللهفة في عينيه، فتعمد الصمت، أراد لحالة اللهفة تلك أن تستمر لبعض الوقت، هي مؤشر جيد على قبول عطية لشروطه حين يمليها عليه. في اللحظة المناسبة قدم له البشرى، المكان به "دفين" يا عطية.. وقبل أن يبالغ عطية في فرحته، عاجله قائلا: مدخل الكنز غرباً، عليك أن تحفر داخل المنزل المقابل لكم، تهاوى سقف الفرح إلى قاع عطيه؛ فكيف له أن

يحفر هناك؟ شرد قليلا بحثاً عن مخرج، لم يلتفت لكلام الشيخ وهو يؤكد له أن ذلك من حسن الحظ، الحفر داخل حوش منزل أفضل كثيراً من الحفر في فضاءٍ مفتوح، لكنه عاد إلى نفسه على وقع كلمات الشيخ وهو يشرط عليه:

- لي الثلث لأساعدك في استخراج الكنز.

معترضا:

- كثير يامولانا.
- هذا أمر متعارف عليه يا عطية.. للَحفر ثلث، وصاحب الكنز ثلث، وأنا ثلث..

صمت عطية يقلبها في رأسه، خشي أن يضع الشيخ العراقيل أمامه حال رفضه.. هو يعلم جيدا تلك الأساليب.. يوماً ما قص عليه زميل دراسة أن "شيخاً" في قريتهم، اعتاد ربط كل مقبل على زواج، ودرءاً لشره، كان كل مقبلٍ على الزواج يقدم له العطايا والقرابين طوعا قبل الزواج بأيام حتى صَار عرفا أكسبه حقا.. آثر عطية أن يهادنه إلى أن يضع يده على الكنز، ابتسم في وجهه قائلا:

- خلاص يا مولانا.. كان يحبذ أن يدعوه بـ"مولانا".. كان يجد أثر ذلك في بريق عيني الشيخ.

تَلكؤ عطية للحظات قبل أن يبدي موافقته زرع الشك في قلب الشيخ؛ الذي سارع بتحذيره:

- احترس ياعطيه، لا مجال للخيانة أو الغدر.. الغدر هنا يعني ضياع الكنز..

ابتسم عطية ولم يعقب..

"عليك إذن أن تُسرع" قالها الشيخ ثم استطرد قائلا: الوقت ليس في صالحنا، عليك سرعة تجهيز أفراد أقوياء، وثقاة، وعليك أيضا أن تضع خطة الحفر، فكر جيدا كيف ستحفر في بيت جارتك؟

٢٠

حول إحدى الطاولات، هنالك في أقصى الصالة جلس ثلاثتهم، كان حسين قلقاً رغم أنه اجتهد في التنكر، ارتدى الجنز والتشيرت، حلق لحيته وشاربه، قص شعر رأسه وصففه بشكل ما جال بخاطره يوما أن يفعله، طوق عنقه بقلادة وزين معصمه بانسيال فضي، ورغم ذلك كان يشعر أن العيون ترقبه، وأن جريمته تلاحقه. تجنب مواجهة الصالة، انكفأ ببصره في مواجهة طه وعطيه. كانت ضحكات طه تزعجه، يشعر أنها تلفت الأنظار اليه، كما كانت تزعج عطية أيضا، ما يريد أن يحدثهم فيه كان يتطلب السرية، لا حاجة إذاً للفت الأنظار، لكن طه كان له رأي

آخر، أن تبدو طبيعيا، أمر غير ملفتٍ للنظر، ما يسترعي الانتباه حقا أن يراك الناس على غير ما اعتادوا أن يروك عليه. توقفوا عن الجدل حين أحنى عطية جذعه باتجاههما، كان كمن أراد أن يقول لهما: "حان الآن وقت الجد".

كانت ريري والتي انهمكت في وصلة رقص تتابع المشهد، هي من عرفت عطية على طه حين أصر على السفر، هي تعرف معظم زبائن الملهى الدائمين، تعرف أن البعض لا يرتاد الملاهي للمتعة فحسب وإنما أيضا لعقد الصفقات، وكانت تعرف أن طه كان أحد هؤلاء، الملهى لم يكن إلا مكان جيد للصيد. ولأن حسين لم يكن من رواد الملهى فلم تكن تعلم عنه شيئا، بداية تعارفها به حين اتصل بها على هاتف منزلها يسأل عن عطيه، يومها قص عليها عطية كيف أنقذه حسين من الغرق، ومؤخرا أخبرها أن حسين التجأ اليه حين لم يجد مأوى له.. راحت ريري ترقبهم من بعيد.. زادت من حماستها في الرقص حين غمز لها عطية بعينة وبدأ يتجرع الشراب، حتى حسين الذي تمنع عن الشرب للحظات، تناول كأسه وراح يشرب هو الآخر،لقد حصل . إذاً . على موافقتهما..

استأذن طه وغادر الملهى لأمر له، في حين خرج حسين عائدا إلى مأواه لدى عطيه، المكوث أكثر قد يعرضه للخطر. حين فرغت ريري من وصلة الرقص، كانت متلهفة لمعرفة التفاصيل، "لم يتبق إلا فاطمة" قالها عطية بصوت المنتصر، تجرع كأسا آخر ثم أردف

بصوت خفيض كأنما يحدث نفسه: أنا وأنت وهي والشيخ نبيل وحسين وطه.

اكتفى عطية بهؤلاء، منهم من فُرض عليه لأسباب مختلفة كالشيخ وريري وفاطمة ومنهم من اختاره لقوته أو خبرته، ستة أفراد، مضاعفات الرقم ثلاثة، ثلثهم من النساء. لا حاجة له إلى المزيد، هكذا اقنع نفسه، زيادة العدد قد تكشف أمره، أو قد تغري أحدهم فيطمع في الكنز.. ما زال أمامهم متسع من الوقت ولاحاجة إذاً إلى المزيد من الأفراد.

٢١

لا شيء يضاهي شعوَر امرأة بأنها مرغوبة، إحساس يحلق بها إلى عنان السماء، يشعرها أنها بحق ملكة، يشعرها أنها أنثى، هذا الإحساس يفسر سعادة المرأة حين يطلبها زوجها للفراش ربما أكثر من سعادتها بالعلاقة الحميمية ذاتها.. من أجل هذا الإحساس تتجمل المرأة، من أجله تمضي وقتا طويلا أمام المرآة، تشغل وقتها بالأزياء والموضة، تنفق كثيراً، تنحت جسدها، تنفخ هذا وتشد ذاك.. أمر مكلف، وَشاق، تبذله المرأة للوصول إلى ذلك الإحساس، هذا الإحساس اجتاح فاطمة دون أن تتكبد أياً من هذا.. تفجر هذا الشعور طوفانا أمام عَجلة عطية الملحة في الزواج

منها، شعور فاطمة بأنها مرغوبة غطى على كل قلقٍ ساورها جراء العجلة التي يبديها عطية في إتمام الزواج. اسبوعان على عودته، ويريد أن يتم الزواج في الأسبوع الثالث! شيء لا يصدقه عقل. لكنه، على كل حال، شعور ممتع؛ أن تكون مرغوباً على هذا النحو. لا شيء إذن يمنع اتمام الزواج يوم الخميس القادم كما أراد عطيه، ثمة ايجاب وقبول، هي بالغة، عاقلة، قدم لها شبكة من الذهب، صحيح أن خاتماً وغويشة قليلان، غير أنهما في النهاية شبكة. اتفقا أن يكون بيتها مقراً مؤقتا لهما لحين الانتهاء من بعض الترميماتِ في بيته، لم يتبق شيء لإتمام الزواج غير مأذونٍ وشاهدين. شيخٌ وشاهدان هما كل متطلباتِ إتمام عقد قران عطية على جارته فاطمة الخميس القادم.. حفلٌ صغير سيقام في بيتها على أن يكون في أضيق نطاق..

في الموعد المحدد جلست إلى جواره بعباءة من تلك العباءات المطرزة على الصدر، لم يكن الأمر في حاجة إلى فستان زفاف اقتصادا في النفقات، ولأن الحفل محدود للغاية، لن يحضره غير بضعِ أفراد، كلهم من أصدقاء عطيه.. حضر طه وحسين، وكانا شاهدين على العقد، وحضرت ريري، نعم حضرت ريري مرافقة لـ طه، حضرت بجسدها الفاتن وزيها المبهر، ورائحتها الفواحة. كان طبيعياً أن تشد أنظار الرجال، غير أن اللافت هو تلك النظرة العميقة التي رمقتها بها فاطمة، وما أقسى نظرة المرأة للمرأة، نظرة

المرأة للمرأة تعادل نظرة ألف رجل للمرأة كما يقولون.. لم تكن نظرة فاطمة إلى زيها الذي أطلق الحرية لمفاتنها تُعبرعن نفسها، ولكن أيضا إلى ما يخفيه ذلك الفستان، وما يخفيه كان قليلاً. في تلك النظرة راحت تقارن بين فستان ريري وعباءتها، بين جسد ريري المتناسق وخصرها النحيف وبين جسدها الممتلئ قليلا، بين بشرة ريري البيضاء الملساء وبين بشرتها التي عبثت بها الشمس، قارنت بين مشيتيهما، بين عطريهما، بين حديثهما، قارنت بين شعر ريري الأشقر القصير وشعرها الأسود المجعد المختبئ خلف طرحتها السوداء.. قارنت وقارنت حتى شعَر بضآلة كادت تفسد عليها فرحتها، غير أنها سرعان ما عادت للفرح من جديد حين بدأ الشيخ نبيل في إجراءات عقد القران، وما إن انتهى إلا وقام طه سريعا وأشاَع جواً من البهجة، سحب يد ريري وراحا يبدعان رقصا على أنغام موسيقى الأفراح الشعبية..

٢٢

خبرة كبيره لـ "طه" في الحفر، ضمنت له نصيبا مميزا من الكنز، هكذا اتفق مع عطيه، لن يأخذ نقودا الآن، على أن يكون له نسبة من الكنز تعادل ثلث الثلث المخصص للحفر، لم يكن لدى عطية ما يقدمه له، كان يعتمد في كثير من نفقاته على ريري، لذا وافق

على شروطه، خاصة أنها لن تمس حصته الأساسية كمالك للكنز.
" هذا إنجُمد كنز من الأساس" قالها عطية في نفسه متهكما.. كل شيء بات جاهزا.. متطلبات الحفر واستخراج نواتجه جلبوها تحت ستار الليل: عروق خشبية، بكرة، حبال، كواريك، مقاطف، جرادل وأسطال، سلالم، لمبة كهربائية متصلة بسلك طويل، كشافات احتياطية تعمل بالبطارية، وأشياء أخرى.. كانوا قد قرروا البقاء في البيت خشية من لفت الأنظار. كان منطقيا أن يعُهد بالحفر إلى كل من طه وحسين وفاطمة، هم الأقوى والأكثر قدرة على التحمل، في حين تولى عطية مع ريري وبمساعدة الشيخ سحب المقاطف والأسطال وتفريغها ثم إعادتها عبر بكرة منصوبة على سبية ثبتوها أمام فوهة الحفرة. شهر قضوه في الحفر، يبدءون قبل أن تصحو الشمس وينتهون مع آخر ضوء. غير أن ضوءا في النفق المظلم لم يلُح، تدريجيا بدأت تفتر همتهم، شهر الأجازة الذي حصلا عليه من الملهى قد انتهى، أيام قليلة تفصلهم عن المهلة المحددة للوصول إلى الكنز، وكلما مر الوقت ازداد عطية توترا، فيمد ساعات العمل لتطال شيئا من الليل.. في اليوم الثالث والثلاثين للحفراصطدموا بطبقة حجرية متكلسة، لم تتجاوب مع ضرباتهم رغم قسوتها، وظلت عصية على الكسر؛ توقفوا عن الحفر. أزالوا طبقة الرمال من فوقها فظهرت بلاطة حجرية تغطيها نقوش فرعونية، حين تأملها طه تهللت أسارير وجهه وصاح "الباب.. الباب" كان يعلم أن الفراعنة

عادة ينقشون أدعية وتمائم على أبواب مقابرهم لحفظ محتوياتها.. أكثرهم سعادة كان عطية الذي هبط ورفاقه سريعا للمعاينة، دقق الشيخ نبيل فإذا بشق صغير تحشوه الرمال يفصل بين تلك البلاطة الكبيرة وبين أخرى صغيرة تبدو كبابٍ، حين هموا بتكسير الباب، حدث ما أدهشهم، مع كل طرقةٍ علىٍ الباب ترتد إلى الطارق ذرات حادة قوية من الحجارة تجبره علىٍ التوقف، ودون أن تؤثر في الباب الصخري، بدا المشهد وكأن كائنات مخفية تقذفهم بتلك الحجارة لتمنعهم من التكسير، أوعز لهم الشيخ نبيل بالتوقف، ثمة "رصد" يحرس تلك المقبرة، قالها الشيخ بثقة العالم ببواطن الأمور، عليه أن يقوم بما يجب لصرف الرصد عنها، لن تُفتح دون ذلك، أحضر الشيخ نبيلٍ بعض الأشياءِ واختلى بنفسه فوق الباب الصخري، أخرج بخوراً وقرأ طلاسَم، وحرق أشياء، ونظر إلى كفه وتمتم بكلام غير مفهوم ثم أخرج ورقة وقرأ عليها وأحرقها، ثم طلب منهم رفع الباب بهدوء، لكن الباب لم يستجب، حاولوا كسره مرة أخرى، ورغم أن الذرات الحجرية الحادة اختفت إلا أن الضربات لم تفلح في كسر الباب، هداهم التفكير إلى محاولة رفعه ولو جزئيا، اجتهدوا في رفعه، وبعد معاناة استطاعوا أن يرفعوه، لضيق المكان، وثقل الباب لم يتمكنوا من إزاحة الباب كليا عن المدخل، فاكتفوا بإسناده قائما، سلط طه المصباح ليستكشف ما خلفه، فإذا بدرجٍ حجري، طويل، مائل، تكومت عليه بعض الرمال، يعبر أسفل سور المنزل. تقدموا

أكثر، كان الدرج يفضي إلى أرضٍ منبسطة لتجويفٍ صخري كبير أشبه بقاعة، لم يستطع طه أن يتبين ما فيها. حَذِراً، واصل التقدم، تبعه حسين وفاطمة وقد أمسك بيدها خشية الانزلاق، إنهار صبر طه أمام الفضول الجامح الذي اجتاحه، فرفع بصره ومصباحه عن الدرج باتجاه الصالة، فانطلقت منه لا أرديا شهقة قوية، قبل أن تزل قدم فاطمة فتسقط ويسقط أمامها كلا من طه وحسين، لتتشابك آهاتهم ويتردد صداها عاليا قبل أن يبتلعهم الصمت الذي خيم على المكان..

٢٣

كان الباب الصخري مفتوحا على وضع أيديهم، يستند قائما إلى باطن جدار الحفرة. حين هموا باللحاق بمن سقطوا، هوى الباب ليغلق الفتحة تماما، حتى بدا وكأنه لم يفتح من قبل. عبثاً حاولوا إزاحته، انقطع الاتصال بالآخرين، لم يعد يُسمع لهم صوتٌ، حاولوا التواصل معهم دون جدوى. عاودوا التكسير من جديد، اعتقدوا أن النجاح قد يحالفهم هذه المرة، غير أن الذرات الصخرية عاودت تطاردهم من جديد مع كل طرقة، فتوقفوا على الفور، أفسحوا المجال للشيخ نبيل ليعاود طقوسه، بعد محاولات عدة توقف الشيخ عن طقوسه وقد تغير وجهه، وسارع بالخروج من

الحفرة كهاربٍ من الموت، كانت هيئته دافعاً للاستفسار عما حدث، استعاد الشيخ بعضاً من أنفاسه الهاربة وقال لعطيه بصوت هامس:

– المسموح بدخولهم ثلاثة أفراد فقط، لدخول المزيد لابد من..

ثم توقف عن الكلام ونظر إلى ريري، لم تكن بعيدة عنهم بالقدر الكافي، سحب عطية من ذراعه وسار به خطوات ثم مال برأسه نحوه وهمس في أذنه بشيء ما تبدلت له ملامح وجهه. اندفعت ريري غاضبة صوب عطيه، تتساءل عما يحدث، وعما أخبره به الشيخ، إلا أن عطية لم يلق لها بالاً وغادر مسرعاً، نظرت إلى الشيخ وكأنها تقول له، لا مفر، ستقول يعني ستقول، تقدمت نحوه، وراحت تستنطقه بما حدث..

٢٤

جَمَدَ الثلاثة، طه وحسين وفاطمة، أنفسهم ملقون على أرضٍ رملية، غير بعيد عن المصباح الذي تماسك، وظل متشبثا بضوئه في وجهة ظلام دامس فرض سطوته على المكان. كانت رائحة غريبة تعبق المكان، تشي أنه لم يفتح منذ زمن بعيد. نهض طه يتأوه، كاد يسقط حين تحرك باتجاه المصباح، غير أنه تماسك وتحرك ببطء

متحاملاً على نفسه وقد شعر بألم في ساقه اليسرى. التقط المصباح وجال بضوئه، تأمل في تمعن ذلك المشهد وكأنه يرى فيلما تاريخياً، ثلاثة تجاويف أشبه بغرفٍ يقف على فتحاتها تماثيل ضخمة وإلى جوارها بعض التماثيلِ والتحف الذهبية الصغيرة والتي شغلت ثلاثة أضلاع من المستطيل تاركة الضلع الرابع ووسط المستطيل خاويين. توقف بالمصباح صوب فاطمة، كانت ملقاة غير بعيد عن الدرج، رأسها مشرئب باتجاه السقف، تعصر عينيها، تتأوه من فرط الألم وهي تمسك ركبتها التي نزفت، توقف لحظات يتأمل ساقها التي صبغتها الشمس بلون خمري، فرت الدماء منه عندما شعر بيد ثقيلة تهوي على كتفه، كانت يد حسين الذي تساءل:

- هل أنتما بخير؟

لم يرد طه إنما رمقه بنظرة مهينة ثم اتجه نحو فاطمة، لا يدري ماذا يفعل لها. أخذ حسين المبادرة، سريعا، خلع قميصه ثم نزع فانلته الداخلية، وهمَّ بربط ركبة فاطمة، غير أن طه انتزع الفانلة وتشممها بقرفٍ ثم نأى بجانبه، الأمر الذي استفز حسين فقال غاضبا: "إنها قطن أصلي". كان كمن أراد أن يقول أن القطن أشبه برباط ضاغط ويصلح لحالات كتلك. عاد حسين وجذب الفانلة ثم شرع بربط ركبة فاطمة التي كانت تنظر إليه ممتنة، بادلها الابتسامة وما إن فرغ حتى سارع مبتهجا صوب الكنز.. الآن سيملك المال، سيفر إلى أبعد مدى، سيعاود الكَرَّ ويسافر إلى

الضفة الأخرى من المتوسط، حيث لا ثأر، ولا خوف.. لن يسافر عبر سفن الموت التي تقل مئات الفارين، وإنما سيسافر من قاعة كبار الزوار، عبر أفخم الطائرات، وأعلى الدرجات.. إنه المال؛ مفتاح الأبواب المغلقة والعصية على الفتح، ها هو المال أمامك يا حسين، إغترف منه ما شئت.. وقف حسين في مواجهة كم كبير من التماثيل الذهبية صغيرة الحجم، راح يتأملها في ذهول، وبمجرد أن لامس تمثالاً، حتى طارت رقبته في لمح البصر.. شيء لا يصدقه عقل، حدث ذلك في لحظة واحدة، شيء أشبه بالطائر انطلق بسرعة هائلة ليطيح برأسه بعيداً، ليتدفق الدم منه شلالاً، وتسقط فاطمة مغشيا عليها، بينما التقط طه المصباح سريعاً وفر هارباً صوب الدرج..

٢٥

أمر عجيب رآه طه حين فَرَّ مذعورا باتجاه الدرجِ أملاً في الهروب والنجاة، ما إن اقترب من بداية الدرج وَهَمَّ بارتياده إلا وقد تلاشى وحل محله شعاع نوراني قوي وكثيف، حتى أنه لم يتحمله فارتد خطوات للوراء، عندها عاد الدرج من جديد. كرر فعلته إنما ببطء هذه المرة، فحدث الشيء ذاته، اختفى الدرج وحل محله هذا النور الرهيب. عاد إلى الوراء مُحَصراً بين التماثيل التي تقتل من

يمسها و ذلك النور الرهيب.. أي رعبٍ هذا يا ربي! قالها طه كمظلوم نال مالا يستحق من العقاب، لكنه في هذا اللحظة تماماً داهمته أفعالهضاحكةً ساخرة: هذا بعض ما جنته يداك يا طه، وبعينين فاغرتين راح يتابع تفاصيل حياته التي مرقت من أمامه كشريط سينمائي..

طه محمد يوسف، مواليد القاهرة ١٩٥٢، خريج تجارة القاهرة، مر في حياته بمراحل عدة.. عاش طفلا مهملاً لأسرة فقيرة، استقطبته الجماعات المتشددة صبيا، قبل أن يتخلى عمدا عن تشدده بتعليمات حملها إليه عضو بارز بالجماعة.. عاصر طه كغيره من الإسلاميين مرحلة صحوة الإسلام السياسي والتي أعقبت هزيمة يونيو ١٩٦٧ وسقوط القومية العربية، في هذا التوقيت وتحديدا في ٢٥ سبتمبر ١٩٦٩ أسست منظمة التعاون الإسلامي والتي وافق عليها جمال عبد الناصر مضطرا تحت وطأة الهزيمة بعد أن سبق وعارضها باعتبارها بديلا للقومية العربية. استمرت تلك الصحوة في عهد السادات الذي أفرج عن الإسلاميين لم يكن ثمة سبب واضح لذلك، البعض أرجع ذلك إلى كسب ود دول البترول العربية الداعمة للإسلامين في حرب أكتوبر١٩٧٣ وهو ما تحقق بالفعل بحظر تصدير النفط إلى الدول الداعمة لإسرائيل، والبعض الآخر أرجع ذلك لاستخدام السادات للإسلاميين في مواجهة اليساريين والناصريين، وآخرون ردوا ذلك إلى رغبة السادات في حرقهم وهم

الذين احترفوا العمل السري تحت الأرض، ظهورهم إلى العلن يعني رفع الغطاء عن الهالة التي صاحبتهم كما أنهم سيصبحون تحت سمع وبصر الدولة.. وأيا كان السبب، استمرت الصحوة الإسلامية في عهد السادات والتي لم تقتصر مظاهرها على قطع التليفزيون برامجه لعرض الآذان، ولا لكم البرامج الدينية المتزايد ولا لمنع بيع الكحول في غير الأماكن التي تقدمه للسياح، بل ظهرت في تسمية الرئيس السادات بـ"الرئيس المؤمن" وتبنيه لشعار "دولة العلم والإيمان". لكن التضييق على الإسلاميين عاد مرة أخرى مع نهاية عهد السادات حيث معارضتهم القوية لاتفاقية السلام التي وقعتها مصر مع اسرائيل في العام ١٩٧٩ وما تسرب من أخبار بإعدادهم لقلب نظام الحكم، في سبتمبر ١٩٨١ ألقى السادات بمعظم قادتهم في السجون.. وفي محاولة مبكرة للتغلب على هذا التضيق اختصت الجماعة بعض عناصرها الأكفاء بمهمات خاصة وأرسلت إليهم أعضاء بارزين بتكليفات محددة، كان طه واحدا من هؤلاء الأكفاء، أظهر قدرات خاصة إبان فترة دراسته بالكلية، صحيح أن ذلك كان وقت الصحوة إلا أن ثقة الجماعة في قدراته الكبيرة أهلته ليكون أحد هؤلاء الأكفاء المختارين لتلك المهام الخاصة. في ذلك اللقاء أخبره عضو الجماعة البارز أن التضييق الأمني أدى إلى خسائر كبيرة، استعواض الخسائر وتجنيد آخرين بات أمراً صعبا ومكلفا، والغاية تبرر الوسيلة، أَحضر المال بأي وسيلة يا طه، نحن

مضطرين وليس على المضطر حرج، نحن في مسيس الحاجة إلى المال، والمال ستجده بالقرب من كل محرم، ستجده في أماكن اللهو والدعارة، ستجده بالقرب من تجار المخدرات ومافيا الاتجار بالبشر ومهربي الآثار، ستجده مع اللصوص والكبار، الطيبون لا يكتنزون المال، إن امتلكوه تبرعوا بفائضه. اذهب إلى حيث المال، اذهب إلى كل مُحَرَّم.. ولا تنسى الغاية تبرر الوسيلة وغايتنا لا يضاهيها غاية، غايتنا الله ورسوله.. تَحَوَّل طه المفاجئ لتنفيذ تلك التعليمات كان في بداياته أمراً شاقاً ومرهقا، إلا أنه بمرور الوقت بدأ يعتاد شكله الجديد، بلا ثوب قصير ولا لحية كثة، شاب عصري يرتدي بنطال "الشارلستون" الشهير ذا الأرجل الواسعة، والقمصان الستان اللامعة، مفتول العضلات، وجه لامع، ناعم الملمس، شعره منمق، حتى ضميرٍ سكن عن تأنيبه وهو يمارس الحرام ويخالط اللصوص وتجار الدم. لم يعد يجد تلك الصعوبة والمعاناة. أصبح كل شيء روتينيا، بسيطا، بفضل شبكة المعارف التي أقامها في كل الاتجاهات. عمل في كل المهنِ الخارجة عن القانون والآداب، ارتاد الملاهي الليلية، وخالط أولئك الذي يشعلون سجائرهم بالدولارات، ويقذفون بالأموال لتظلل الراقصات. ذيع صيته بين المنقبين عن الآثار والباحثين عن الخبايا والكنوز كأحد أمهر الحفارين. وكان وسيطا لدى مافيا الاتجار بالبشر، كان حلم الفارين من القهر والظلم أو حتى الجرائمِ وملاذ الحالمين بالأمن والثراء،

يدفعون إليه أموالهم ليلِقُي بهم في عَرض البحر، يصارعون الموت للوصول للضفة الأخرى باتجاه أوربا. كان يتنقل بين محافظات مصر، وأينما وجد المال كان يحط الرحال. يتردد على مقاهٍ بعينها يرتادها تجار الحرام، ويقضي لياليه في ملاهٍ محددة، يعقد الصفقات ويستقطب الزبائن. تعرف حسين عليه في مقهًى بالقاهرة يرتاده مافيا الاتجار بالبشر، من أعضاء، ودعارة، ومخدرات. وقد دله البعض عليه ليمكنه من السفر. ظل طه يراوغه أياما عدة، فالشغلة مليئة بالفخاخ، وفيها كثير من الجواسيس والمدسوسين. أنصت إليه أخيراً حين اطمأن له، وأخبره يومئذ أن سفره للخارج يتطلب خمسة عشر ألف جنيه.

٢٦

إنه لأمر يقسم الظهور أن تكون محاصرا بين الموت والعجز، العجز عن الفرار من الموت هو موت مؤكد.. نكس حسين رأسه باتجاه الأرض حين أخبره طه بالمبلغ المطلوب لسفره، من أين له بمبلغ كهذا، حين همَّ بالخروج مصدوماً، منكسراً، استوقفه طه قائلا:

- واضح عليك إنك ابن حلال، حل مشكلتك عندي.. نتقابل غداً في نفس الموعد في هذا العنوان.

يومها انفرجت أسارير حسين، وراح لسانه يلهج بالدعاء له. لم يشغل باله لماذا لم يخبره الآن؟ ولماذا غداً؟ راح يلتمس له الأعذار، لربما أراد أنيمنح نفسه مزيداً من الوقت ليرتب لهذا العمل، لكنه ظل يفكر منذ أن تركه فيماهية ذلك العمل الذي سيوفر له عشرة آلاف جنيه. كان حسين يمتلك خمسة الآف جنيه ظن في البداية أنها كافيه، هذا المبلغ هو كل ما استطاعت والدته أن توفره وترسله اليه عبر قريب لهم، لم يكن حسين يعلم أنه سيحتاج إلى عشرة آلاف أخرى، فأي عملٍ هذا الذي سيوفر له ذلك المبلغ الكبير؟! "لو مخدرات لن تفعل ذلك!" قالها حسين لنفسه متعجباً. كاد الفضول أن يقتله. قضى ليلته يتعجل ألثوان انتظاراً لذلك الموعد.. وقبل المواعد بساعتين، وخشية من عدم الوصول في الموعد المحدد، استقل حسين تاكسيا، كان صوت المذياع يردد أغنيه حزينة شدته. دائما نتأثر بالأحزان، بالدراما، بكائيون نحن، ربما لكثرة المواجع والآلام ننحاز لكل ما هو مؤلم وحزين، المسلسل الحزين، الأغنية الحزينة، الموسيقى الحزينة، كلها تترك أثراً كبيرا فينا. انشغل كثيرا بالأغنية وأبعدته قليلاً عن التفكير فيماهية العمل الذي سيجلب له ذلك المبلغ الكبير.. حين وصل إلى العنوان أشار للسائق بالتوقف ودس في يده مبلغاً من المال، نظر في ساعة يده، ما يزال أمامه متسع من الوقت، فكر أن يذهب ويصعد تلك البناية لكنه آثر التريث، قد يترك انطباعا سيئا عنه، الانطباع الأول يظل عالقا بالأذهان ومن

خلاله عادة يتم الحكم على الأشخاص، فليترك انطباعا أوليا جيدا. الأفضل أن يعود قبل الموعد بخمس دقائق، هاهو قد عرف المكان، خمس دقائق كافية ،إذاً ، لأن يرتقي المصعد ويكون في الزمان والمكان المحددين، إنه لأمر جيد أن يقدم نفسه كملتزم بالموعد ومقدر للوقت، كما أنه لا يريد أن يلفت انتظاره أنظار أحد، لا سيما أنه هارب مطارد.. تجول قليلا بالمنطقة غير بعيد عن المكان، طرد القلق الذي ساوره، لا يمكن لأحد أن يعرفه وقد اجتهد في التنكر، استعاد شيئا من الطمأنينة، راح يطالع المحلات الفارهة والبنايات الشاهقة. قبل الموعد بقليل اتجه نحو البناية التي يقطنها طه، استقل المصعد وكان في المكان والزمان المحددين. كان طه في انتظاره بابتسامة عريضة، ووجه بشوش، رحب به كثيراً، قدم له العصائر، وكلما سأله عن العمل أرجأ الإجابة قائلا: لم العجلة؟ العمل لن يهرب، لنشرب أولا ثم نتحدث..

صمت حسين، لكنه كان كمن يجلس على فوهة بركان، لم يصمد صمته طويلا أمام تسونامي الفضول الذي يجتاحه، فقال:

- ماذا بشأن العشرة الآف جنيه؟

بهدوء قال طه:

- أمام عجلتك تلك والتي تشعرني وكأن الدنيا ستطير، أجدني مضطرا للدخول في الموضوع مباشرة، والأمر ـ كما يقولون ـ

عرض وطلب، إن استحسنت الفكرة وقبلت بها فأهلا وسهلا، وإن لم تقبل، كأنك لم تسمع شيئا.. إذا اتفقنا أكملت لك، وإن لم نتفق فبلاها من الأول..

سارع حسين بلهفة:

- متفقين، اتفضل، أنا سامع..
- فيه شاب مريض عنده مشكلة في الكِلى، والده غني وعلى استعداد لدفع مبلغ كبير لمن يتبرع له.. أنختطف لون حسين، عندما سمع الحديث وبدا عليه الانزعاج.. لقد بدأ يفهم القصة، إنه الاتجار في لحوم البشر، بيع كِلية"... سارع طه مهدئاً:
- شكلك اتخضيت.. أولا هي لله، يعني أنك سوف تؤدي عملاً خيريا، تنقذ به حياة شاب ما يزال في مقتبل العمر، هذه نفس، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، خذها بهذه النية، ثم إن ربك خلق الناس درجات ليعتمد بعضهم على بعض، ويكمل بعضهم بعضا..

همس حسين في نفسه: يا ولاد الكلب، تجارة يعني. ثم عاد ينصت إليه وهو يقول:

- يعني انت لديك مشكلة مالية كبيرة، وهو لديه مال وفير. لديك ما شاء الله صحة مفرطةولديه ابن وحيد مُبْتَلى

صحيا. لماذا لا يكمل بعضنا بعضا دون أن يقع ضرر على أحد؟ تأخد انت جزءاً من ماله دون أن يؤثر ذلك على حالته المالية، وتعطيه إحدى كليتيك دون أن يؤثر ذلك على حالتك الصحية.. الإنسان يستطيع أن يعيش بكلية واحدة، كل الدنيا تعرف ذلك، وكثير من الناس يفعلون ذلك، كثير من الناس يعيشون بكلية واحدة..

عموما هي فرصة، والفرص لا تأتي كثيراً، إن لم تقتنصها تخطتك إلى آخرين.. لو قررت أخبرني سريعا، لن تجد صعوبة في الوصول إلي، ستصل كما وصلت من قبل..

٢٧

في أعقاب جريمته، ترك حسين غرفته في حي شبرا والتي كان قد استأجرها هناك لتكون على مقربة من محل العطارة الذي التحق به عقب تخرجه من كلية التجارة. لم يجد ملاذا آخر، سكن بسيط في حي امبابة، يسكنه أولاد عمومته الذين يقطنون القاهرة منذ زمن بعيد. ورغم أن المكان يعد شبهة في حد ذاته إلا أن أولاد عمومته اجتهدوا في درء الشبهات عنه، وتصرفوا بشكل تلقائي يبعد عنه كل شبهة. وقد ساهم حسين في ذلك، فلم يخرج من غرفته تلك، ولم يفتح لها نافذة. في أوقات عدة كان أولاد عمومته يمارسون شيئا

من التمويه، يتعمدون فتح شباك تلك الغرفة في الوقت الذي يتوارى فيه حسين في مكان آخر.. أصبحت تلك الغرفة محبسا له، مع الوقت بدأ يضيق ذرعا، شعوره بأنه عالة على أقاربه ضاعف من همه.. يعَلم جيداً أنه لو ظل سنوات في هذا المكان لن يضجر به أبناء عمومته، لكن عليه أن يكون حسيسا.. كما أن الشرطة تطلبه، وثأر يبحث عنه، ووجوده هنا غير آمن، إمبابة شأنها شأن معظم أحياء القاهرة يقطنها كثير من الصعايدة، عليه ألا يسبب ضرراً لأقاربه الذين آووه؛ التستر على مجرم هارب عقوبته السجن. قرر أن يعاود ويطلب منهم أن يقرضوه المبلغ اللازم لسفره، هذه المرة ألح في طلبه. إصراره والحالة النفسية التي بدا عليها وخشيتهم عليه وعلى أنفسهم، دفعتهم لتحقيق رغبته، وفروا له المبلغ المطلوب.. ولأول مرة منذ أقدم حسين على جريمته يتسرب إليه إحساس بالراحة، وكأنه استنشق رائحة البحر، وكأنه بدا على مشارف ايطاليا.. وكالمرة الأولى، ذهب متخفيا إلى طه، واتفق معه على كل شيء.. كل شيء..

٢٨

شهقت ريري في انزعاج مما سمعته من الشيخ، صاحت معترضة، كله إلا هذا، لم نتفق على ذلك.. تسمرت عيناها على عطية الذي جاء متعجلا، حاملا طفلا بدا صامتا كمن لا يهاب

الموت، حاولت ريري أن تمنعه، فتدخل الشيخ، لقد نفذ الأمر، والتقط عطية خيط الكلام من الشيخ: الولد مريض وميئوس من علاجه، يعني ميت ميت، ليس أمامنا وقت طويل، المهلة التي منحت لنا ثلاث ساعات فقط، ومسك الرضيع وجزَّ رأسه أمام الباب الصخري، ثوان وجفت الدماء، والتئم جرح الطفل ثم اختفى؛ فانزاحت معهم الصخرة بيسر. كان المشهد مرعبا، هربت له دماء ريري بينما احتفظ الشيخ وعطيه بأعصابهما. راح الشيخ يتمتم بآيات وأدعية، وعلى ضوء كشاف عطية نزلوا سويا ببطء إلى المقبرة، كادت قدم الشيخ أن تزِل فتشبث بيديهما.. كان عطية في المقدمة تلاه الشيخ ثم ريري، كان ضوء الكشاف ضعيفا، لكنه مع ذلك مكنهم من النزول بسلام باتجاه ضوء المصباح، في ذلك الحين لم تكن فاطمة قد أفاقت بعد، كانت ما تزال ملقاة على الأرض، مغشيا عليها، كانت في وضعية مثيرة، ملهبة، غير أن طه الذي تأملها قليلا، طرد شيطانه سريعا، فقد بات الموقف صعبا وبات أقرب إلى الموت. مال نحوها ونكزها نكزا خفيفا في محاولة لإفاقتها، غير أن المشهد بدا لعطيه القادم نحوهما غير ذلك، كله إلا الشرف، استيقظ الرجل الشرقي بداخله، تدفق الدم في عروقه واندفع نحوه ولطمه لطمة قوية أطاحت به أرضا، لم يكتف عطية بذلك بل انقض عليه وانهال عليه ضربا، كان طه مستسلما بشكل غريب لا تفسير له. أمسكت ريري بالمصباح الذي ظل مضيئا،

وتمكن الشيخ من إزاحة عطية عنه.. كانت فاطمة قد استعادت وعيها وشهدت جزءاً من المعركة، وراحت تستوعب ما حدث، قبل أن تصرخ وتجهش بالبكاء..

٢٩

أنصتوا إلى ماحدث، وما حدث كان مؤلما، كانت فاطمة تقص ما حدث بتأثر كبير، وكان طه يتداخل أحيانا ليوضح نقطة أو يكمل عبارة، وحين انتهت، لَاَمُهم الشيخ نبيل قائلا:

– ما كان لكم أن تمسوا شيئا منها، كل تلك الكنوز محروسة.

تساءل عطيه:

– والعمل يامولانا؟ الكنوز أمامنا ولا نستطيع حتى لُمَسها!

عاود الشيخ قراءة الطلاسم والتعاويذ، حرق أوراقاً وفعل أشياء، والعيون ترقب، والأنفاس محبوسة. مضى وقتٌ والشيخ على حاله، إلى أن هَبَّ فجأة كمن اكتشف ما لم يأت به الأولون، كان أشبه بـ"أرخميدس" حين اكتشف قانون الطفو وصاح وجدتها وجدتها، الأمر الذي أفضى وقتها للإطاحة برأس صانع تاج الملك.. كان الشيخ واثقاً؛ مبتهجا، حين أخبرهم بأن كل شيء بات على ما يرام، "بإمكان أي منكم الآن أن يمس الكنوز دون أدنى أذى" قالها الشيخ بثقة متناهية، غير أنه فوجئ بردة فعلهم، حيث لم يتحرك

أحد، لم يسارع أي منهم صوب التماثيل. تسمر الجميع في أماكنهم، ينظر بعضهم إلى بعض في صمت مُطبِق؛ نظر اليهم مليا، قرأ ما في أعينهم، يبدو أن ما حدث لـ"حسين" ماثل بقوة في أذهانهم. الثقة فيه والتي كثيراً ما كان يتباهى بها باتت على المحك، إنها كل رأسماله.. انتفض لنفسه، تقدم باتجاه الكنوز. قاوم الخوف الذي يتمدد سريعا بداخله، العيون الجاحظة تتابعه، تترقب.. حين توقف في مواجهة بعض الكنوز، داهمته صورة حسين، اجتاحته قشعريرة كادت تدفعه للتراجع، غير أن الحَمِيَّة ثبتته. استدار برأسه ينظر اليهم، ثم عاد وأشاح بوجهه، يطالع الكنوز، كان كمن يتأهب لنزال يرتاب في حسم نتيجته،استجمع شجاعةً هاربة، وما إن تقدم ولامس تمثالاً حتى طارت رأسه.. تماما كالذي حدث لـ حسين، كل شيء تمَّ في لحظة.. مارد عملاق مرق كالبرق بسيف لامع، أطاح برأسه بعيدا عن جسده الذي سقط أرضا تتدفق منه نافورة دماء.. يهرع الآخرون صوب الدرج، ليجدوا ذات الشعاعِ النوراني وقد حل محله يجبرهم على التراجع. كاد المشهد يودي بعقولهم حين أعادوا النظر.. الأرض تصدر صوتا يبعث على الاشمئزاز وهي ترتشف الدماء بنِهم، والرأس تعود للجسد الذي يتلاشى ويتوارى عن العيون في ثوانٍ، من دون أن يعرف أحدهم إلى أين.. شيء لا يصدقه عقل، شيء تشت له العقول..

الشيخ "نبيل".. لعلك زرته يوما، أو فكرت في لقائه، لربما يسكن حارتكم، أو شارعكم ولربما يقطن إلى جواركم. قد تجده باسمه هذا وقد تجده بمسميات أخرى، قد تجده شاباً أو كهلا، قصيراً أو فارع الطول، نحيفاً أو ضخم الجثة، قد تجده بلا شارب، المؤكد أنه ذو لحية كثة، يرتدي ثوباً وغطاء رأسٍ يتُم به هيبته ويَحول به بينك وبين ما يدور في رأسه.. هو حافظ للقرآن، لم يكمل تعليمه بسبب فقره، عمل محفظا قبل أن يتحول إلى راقٍ.. ذيع صيته في فك السحر وجلب الحبيب وإعادة المسروق والكشف عن الخبايئ فبات َمقصِدا للساسة وعلية القوم، يترددون عليه للنيل من خصومهم وعرقلة مسيرتهم. ولأن النساء أكثر إيمانا بالسحر والشعوذة، فهن أكثر زبائنه، ربما تعلق الأمر بكيد النساء، والتنافس على قلب حبيب أو غيرة تدفع للانتقام، أو خشية العنس أو الطلاق.. لم تسلم الجميلات من زبائنه من سهام نظراته، وربما لمساته وما أبعد من ذلك، قد يفسر ذلك عزوفه عن الزواج، ما يأخذه منهن ربما يغنيه عن الزواج، أوأنها عقدة الفقر التي ظلت تلازمه . رغم غناه . وتمنعه من الارتباط بامرأة قد تعرقل مسيرته.. ومع ذلك يقال أنه تزوج في بداية حياته من إمرأة، سرعان ما تخلت عنه حين أرجعت سبب إجهاضها المتكرر لطبيعة عمله المرتبطة

بالجان، انفصلا ولم يعد يسمع عنها شيئا.. لم تفلح فتاوى السلفيين والبلاغات التي قُدمت ضده في النيل منه بفضل شبكة العلاقات التي أقامها.. قصدته ريري في مراحل صعوده الأولى، لم تكن هي الأخرى غير فتاة في ملهًى ليلي تسعى لتثبيت أقدامها، صعد نجمها سريعا بفضلٍ أعماله كما اعتقدت، كان عليها أن تدفع الثمن حيث لاشي دون ثمن، غير أن الثمن لم يكن مالا، قالها بوقاحة حين سألته عن طلباته. دونما خجل قال بثقة أدهشتها: "أنتِ".. لكأنه يعلم ردة فعلها مسبقا، من أين له بتلك الثقة؟ هي ذاتها لم تتوقع ردة فعلها، ربما فضحتها ملابسها العارية، أو أنها طبيعة مهنتها التي تجعلها مطمعا للآخرين. لحظات معدودة كانت كافية لتخلص لقناعتها.. في وسط كهذا لابد لها من تضحيات كتلك، الجمال هو رأسمالها، والزمن عدو الجمال، والصبر يعني استهلاكا لرأس المال، يعني الخروج من الساحة مبكرا، لذا قد تلجأ البعض إلى تضحيات كتلك لتصل سريعا. قصص كثيرة تعلمها عن فنانات سلكن ذات الطريق وقدمن أثمانا مشابهة. لاسيما في الحالات التي لا يصلح أن يقدم فيها غير تلك الأثمان، بعض الرجال يهزمهم الجمال، فلا يرضون بأقل من أن يتذوقوه.. ظلت على علاقة بالشيخ نبيل حتى بعد تعرفها على عطيه، هي لا تستغنى عن خدماته كما لم يستغن هو عن جسدها، ورغم أنها تحب عطية إلا أنها لا تمانع أن تستخدم جسدها من آن لآخر

للحصول على بعض المكاسبِ. عطية بالنسبة لها هو الحب، لا تأخد منه غير الحب، بل أنها هي التي تنفق عليه، أما الآخرون فهي تقدم نفسها لهم حين تتعثر ماديا أو طلباً لخدمة كبيرة.. حين علمت من عطية بقصة الحلم نصحته على الفور بالشيخ نبيل..

٣١

رعب بحجم الكون يخيم على الوجوه عقب مقتل الشيخ نبيل.. يقفون على مقربة من الدرج، لا يستطيعون الخروج، شبح الموت يطل برأسه عليهم.. تحت الأرض وفي هذا العمق السحيق، لايمكن لك أن تطلب النجده، حيث ينقطع كل شيء، حتى الأنفاسِ تكاد تنقطع.. الوضع يزداد سوءا، قلق فاطمة على طفلها بلغ منتهاه، إنهارت تولول وتنتحب، تلوم نفسها، تضرب كفيها بفخذيها، تُردد ملتاعة: أنا من فعلت هذا بنفسي، ما الذي جاء بي إلى هنا؟.. ابني.. ابني.. راحت تدعو الله بأدعية مختلفة.. ثم طلبت منهم أن يشاركوها الدعاء، قفز إلى ذاكرتها قصة أصحاب الغار، تلك القصة الشهيرة التي أوى فيها ثلاثة أشخاص إلى غارٍ في الجبل هرباً من المطر، لكن صخرة هائلة سقطت وسدت فتحة الغار فحبستهم، فدعا كل منهم الله بصالح أعماله ليفرج كربهم، لتنفرج قليلا بعد دعوة الأول، وتزداد الفتحة بعد دعوة الثاني وتنفرج

تماماً عقب دعوة الثالث.. أخبرتهم بالقصة، وطالبت كل واحد منهم أن يدعو الله بأعماله الصالحة.. غير أن صمتا طويلاً ساد، راح كل منهم ينبش في ذاكرته، يفتش فيها عن عملٍ صالح، غير أن الذاكرة خذلتهم، لم تستدل على عمل صالح خالص لوجه الله.. قطعت فاطمة الصمت قائلة: ليس بالضرورة عمل صالح، لنتطهر بذكر أعمالنا ولربما حوت عملاً صالحا لم نلتفت اليه.. نظر بعضهم إلى بعض، لغة العيون ورغم اضطرابها وترددها أبلغت الموافقة، ليس أمامهم بدُ من هذا، إنه لأمر قاس أن تتعرى علنا، ليرى الناس سوءاتك.. يوم المشهد العظيم، يوم العرض على الله، يكون الجميع منشغلا بذاته، لايهم المرء وقتئذ النظر والاستمتاع بسوءات الآخرين.. غير أنهم مازالوا في الدنيا،أحياءً ، يرتدون ثيابهم، يستطيعون الكلام، وما زالت الشمس بعيدة عن رؤوسهم.. نظر بعضهم إلى بعض ليروا من يمتلك جرأة المبادرة، تلكأ كل منهم هربا من البداية، ما أصعب البدايات!.. تقدمت فاطمة، تقدمت صاحبة الاقتراح لتقص حكايتها..صمتت للحظات وسط ترقب الآخرين، وبصوت هادئ قالت:

لا أدري لماذا أعشق اللحظاتِ الهاربة؟ لحظة قراءة قصيدة أو اقتناص كتاب للقراءة، لحظة تذكر أمي التي تركتني صغيرة، لحظة هروب الشمس نحو المغيب، لحظة هروبي إلى أعماقي.. غابت قليلا تحدق في اللا شيء، كأنما تلبستها لحظة كتلك، أخضعتها

لطقوسها، حركت فيها الخيال، أنستها دقة الموقف والحضور، فراحت تسترسل وتبوح: إنها لحظات استثنائية، لحظات تخالف المألوف، لا تشبه واقعاً ألفناه.. وواقعنا كان جافا، ترطبه على استحياء أحلام شابة تجاوزت العشرين، لم تُمنح فرصة الحصول على شهادة جامعية كانت تحلم بها، لقد قرر الأهل أن المرأة خلقت للبيت والزواج والأولاد. المهم تقرأ وتكتب، ودبلوم التجارة في النهاية اسمه شهادة، قالها والدي بحسم حين أَفْصحتُ له عن رغبتي في دخول الثانوي.. لا يزال البعض يحتفظ بتلك القناعات، يصعب عليك أن تغير من قناعتهم تلك، مجرد النقاش معهم في قضية كهذه هو خروج على الطاعة، تؤثر السلامة، تستكين، تهرب إلى داخلك، تنكفئ على ذاتك كبيتك المنكفئ على ذاته، تطالع الشمس الهاربة باتجاه الغروب، تركض بعيدا خلف أحلامك، فقد تلحق بها يوما، قد تدخل الجامعة عبر شهادة الدبلوم، غير أن الأحلام المتشظية بداخلك تلتئم وتتجمع في حلم واحد بعد أن أخفقت في محاولة الدخول إلى الجامعة للمرة الثانية. لكنه حلم بكل الألوان، له كل المذاقاتِ والروائح المبهجة، إنه حُلم كل فتاة بفارسٍ يهرب بها، ينتشلها من واقعها، ويبتعد بها إلى هناك، حيث كل تلك الألوان والمذاقات. حين تختصر أحلامك في شخص ما، وزواج، وأولاد، فأنت لم تبتعد كثيراً عن قناعات اعترضت عليها مسبقا، لكنها بيئتك المنعزلة، ومحيطك المحدود، وأغلالك التي

فرضتها الجغرافيا والأعراف والتقاليد، أقصى ما يمكن أن تنشده هو حالة حب.. ظَلَلتُ أَكْض خلف هذا الحلم، انتظر الطارق من خلف ذلك الباب الموصد، أتخيله شاباً جميلاً ضل الطريق أو تعطلت مركبته فطرق الباب، أتخيله ابنا لأحد أصدقاء والدي على قلتهم، أتخيله جارنا الذي لم أره إلا مرات عدة، أتخيله هدية خاطبة تبحث عن عروسٍ لزوجٍ استثنائي... كان حلمي شريانا يضخ الحياة في عروقي وجدولاً يلطف جفاف صحرائي .. الحب حالة تلبستني قبل أن أجده، حالة هيأتني سلفاً للتعاطي مع أبسط كلمات الحب، تركت لها نفسي تعبث بها، أرخيت لها أعصابي تستعمرها، فوجدت نفسي أعيش حالة حب.. لقائي به لأول مرة كان لحظة هاربة من ذاك الواقع الجاف، كان ذلك صبيحة يوم ما وقد خرج أبي لعمله كعادته، حين دق الباب، ظننته أبي وقد عاد لشيء ما، غير أني وجدته عطيه. أخبرته أن لا أحد هنا، رد بثقة العالم "أعلم ذلك"، أريدك لأمرٍ هام.. فَتحَتُ الباب الذي ظل صامداً، مغلقا، لعشرين عاما مضت. يومها صعد بي إلى السماء دون درج، يومها تعايشنا مع النجوم، رأيت ما بعد الكون، يومها.. كنت عصية على رغباته رغم ضعفي وحرماني، حين اختطف قبلة نهرته، كانت تلك القبلة الأولى التي أتذوقها، ظللت اليوم بليلته تحت تأثيرها، أتحسس مكانها بيدي، ثم أضعها على فمي، تكررت اللقاءات، تكررت اللحظات، تكررت القبلات المخطوفة، َو..

تكرر وعده بالتقدم لخطبتي. لكنه اختفى فجأة، فَرَّ هارباً وانقطع وانقطعت معه أخباره، عشت على الذكرى إلى أن طرق بيتنا عريس، ابن صديق لأبي، كان يعمل في الخليج، حاولت أن أرفض، لكن لم يكن هنالك مجال للرفض، قالها أبي بحزم وعيناه تكاد تنطق: "لاتنتظري الهارب"، شَعرتُ أنه يعرف كل شيء.. كل شيء، فوافقت على الفور. اتفقنا على عقد القران على أن يسافرهو ويستقدمني توفيراً للنفقات، ولأنه لم يكن قد جهز شقته بعد.. تم عقد القران، لكن شيئاً آخر لم يتم، فقد حدث ما قلب الأمور رأساً على عقب.. حدث ذلك في ليلة ما، منذ سنتين تقريبا، أتذكرها جيدا، كان ذلك قبل الفجر بقليل، حين هجم علىَّ شخص ملثم فقد ضميره، لم يكتف بتجريدي من الذهب بل جردني أيضا من الشرف، قيدني واغتصبني وفر هاربا. بعدها انقلب حالنا، رأس أبي صارت في التراب، أصيبت بخرس مؤقت. حين علم العريس بسرقة المصاغ ورأى حالنا نفض يده وفض الأمر. أصبحت مطلقة دون أن يدخل زوجي بي.. ظننت أن تبعات الأمر قد انتهت عند ذلك، لكن خاب ظني، ماهي إلا أيام وتوالت التبعات، مات أبي ربما قهراً حين علم أن للخطيئة ثمرة عَجزت أن أتخلص منها فظهرت آثارها علىَّ. لم أكن أعرف أن ثمة شيء آخر بانتظاري، لم أكن أعلم أن ثمرَة الخطيئة ثمرةٌ معطوبة، جنيناً مشوهاً وكأنه عقابٌ إلهي، ورغم أن الأمر كان رغماً عني، إلا أن تلك

الثمرة كانت تذكرني بتلك الخطيئة فأجتهد أكثر للتطهر منها، وأبذل كل شيء لعلاج هذا الطفل الذي لاحول له ولا قوة. بمرور الوقت تعاظمت نفقاتي حتى أتت على كل ما تركه والدي، وما تركه كان زهيدا، قصدت الخالة "أمينة"، زوجة الحاج "مصباح" السائق، رفيق أبي في رحلته إلى العراق، لم تكن"أمينة" مقصدا لمن لا عمل لهن فحسب وإنما ايضا كانت تسارع في الخيرات، عند الولادة كانت إلى جواري، وحين ضاقت بي الدنيا كانت أيضا إلى جواري. في زيارة لها للاطمئنان علىَّ والمولود عَضَت علىَّ العمل لديها، كان بيتها أشبه بورشة أو مصنع لتقشير الجمبري، على سيارته النص نقل والتي اشتراها عقب عودته من العراق يأتي زوجها بكميات كبيرة من الجمبري، تلتف حوله النسوة يقشرنه مقابل مبالغ زهيدة وكمية من القشور تُستخدم كعلف للطيور... عَملتُ كالأخريات في تقشير الجمبري.غير أن ما كنت أتحصل عليه كان لا يكفي مصاريف العلاج المتصاعدة.. حين جاء عطية طالبا الزواج ظننت أن الفرج قد عرف طريقه إلىبيتنا، لاسيما أنه أبْدا تعاطفاً مع الصغير، وحين حدثني بأمر الكنز وافقت بعد تردد، قلت لربما رزق ساقه الله إليك لعلاج هذا المسكين.. ويا ليتني ما وافقت.. لا أدري أين كان عقلي وقتئذ!.. صَمتت فاطمة لثوان تستنشق الهواء بعمق، شعرت بعدها أنها خفيفة، كأنما شيء ما أزيح من فوق كاهلها.. لمعت عيناها وهي تنظر إلى أعلى

كمجذوبة، تحدق في شيء ما، تخطو نحوه ببطء وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة ناعمة أضاءت وجهها، همست: لم يمر الوقت بعد، مازالت الفرصة قائمة، أبواب السماء لا تُغْلق.. الشفاء من عند الله، لا أريد مالا ولا ذهبا، هذه شبكتك ياعطيه، هذا ذهبك.. ألقت بالخاتم والغويشة باتجاه عطيه، وواصلت السير بطمأنينة باتجاه الدرج، كانت أشبه بآلة مسيرة يُتَحكم فيهاعن بعد أو كانت كمن وقع تحت تأثر قوة تنويم مغناطيسي.. المدهش أن الدرج لم يختف، وصعدت بسلام.. الذهول الذي أصاب عطية مما سمع حال بينه وبين الفرار باتجاه الدرج كالآخرين، ظل محتفظا بمكانه، محتفظا بفمه الفاغر، وعينيه الذاهلتين، المسلطتين على الدرج، بينما كان عقله يحاول أن يستوعب ما يحدث.. وما حدث كان كبيرا.. لقد قتل عطية ولده.

٣٢

حين يصبح القتل عادة، عندها يصبح الموت مألوفا.. إلى وقت قريب كان قتل أبٍ لأحد أبنائه جريمة بشعة، شاذة، يهتز لها ضمير الأمة، جريمة رأيٍ عام، تزلزل المجتمع وتؤرق ضمائره، مع تكرار الجريمة بات الأمر عاديا، وأصبحت الجريمة مألوفة، لا تكاد الصحف اليومية تخلو من خبر كهذا. مؤخرا نقلت صحيفة قتل أب لابنته التي

لم تتعد التسع سنوات قربانا لفتح مقبرة فرعونية، كما نقلت الصحف خبرا لقتل رجل لطفليه عمدا، وتلك الجريمة التي حدثت في ذلك الحي الراقي في القاهرة وقتل فيها رجل الأعمال أولاده. القتل العمد والتخلص من فلذات الأكباد لم يستثن حتى طُلِع، بل والأجنة في بطون أمهاتهم، تشير التقديرات إلى أن نسبة قتل الأجنة عمداً أو ما يعرف اصطلاحاً بـ"الإجهاض" المتعمد لغير ضرورة صحية بلغت في مصر معدلات مرتفعة، وللإنصاف الصورة ليست بتلك القتامة، ثمة آخرون يتخلصون من فلذات أكبادهم بشكل أكثر رحمة، يلقون بهم إلى قارعة الطريق أو أمام المساجد وصناديق القمامة أو قد يتركونهم في المشفى فور الولادة ويفرون.

ما أصاب عطية من دهشة، كان بفعل المفاجأة ليس إلا، لم يهتز له ضمير، لم يرِق قلبه.. لو علم مسبقاً أن الطفل هو ابنه، ربما لم يغير من الأمر شيئا.. بل الأكيد أنه لن يغير شيئا. لاشيء سوف يحول بينه وبين حلمه، حتى ولو كان ابنه.. عاد عطية إلى نفسه عندما رأى الدرج وقد اختفى، وحل محله ذلك الشعاع النوراني الذي حال دون لحاق أي منهم بـ فاطمة، ارتدوا إلى الوراء، إلى حيث كانوا، عادوا إلى جوار عطيه، وقد أصابهم من الرعب ما أصابهم، محاصرون هم بين تماثيل تقتل من يمسها، وسلم لا يعرفون له كتالوجا.. لكن بارقة أملٍ مازالت تراودهم. خروج فاطمة مؤكد بارقة أمل، لا شك أنها ستحاول إنقاذهم. خروج فاطمة شجعهم

على مواصلة ما بدأته، خروجها سالمة شجعهم على الحكي.. قص عطية حكايته لكن شيئا لم يحدث. الأمر ذاته فعلته ريري، و فعله طه، وأيضا لم يحدث شيء؛ فَسَادَ الصمت وخيم الوجوم..

٣٣

أن تموت بطيئا، أن تدفن حيا، إنه حقاً لأمر قاسٍ.. كان المشهد كئيبا، َو.. ساكنا، لكأنهم استسلموا لقدرهم.. انتحى كل منهم جانبا، احتضنت ريري ساقيها وقد بدت عيناها تائهتين، وعلى مقربة استلقى طه على ظهره وقد توسد يديه.. وحده عطية جلس متمردا، بعمق يمتص دخان سيجارته، يعتصر فكره، يحدوه الأمل في العثور على مخرج. في تلك اللحظة لم يجل الحلم بخاطره، ولم يفكر في المال والسيادة، فقط كان يفكر في كيفية الخروج من هذا المكان.. كيف يهرب من الموت؟.

أبواب النجاة صكت في وجوههم، حتى نافذة الآمل الوحيدة الباقية أُغلقت هي الأخرى بمرور كل تلك الساعات دون أن تأتي فاطمة بالإنقاذ كما أملوا. فترت همتهم. كان لافتا ذلك السكون الذي خيم عليهم وقد استسلموا لفكرة الموت.. ربما أنها قلة الحيلة، هكذا يفعل الغريق حين تخور قواه؛ يستسلم للموت. الشيء ذاته يفعله المريض الذي يأس من العلاج، والعجوز حين يبلغ من العمر

أرذله، يتقبلون فكرة الموت.. يعلم الإنسان مسبقاً أن الموت آتٍ لا محالة، لكنه لا يتقبل تلك الفكرة، يرفض الموت، يظل يقاوم، حتى تخَور قواه؛ عندها يصبح الموت أمراً لامفر منه، عندها يصبح الموت أمراً مقبولا..

في لحظة استسلام كتلك من السهل أن تسمع دبة النملة، غير أن ما تبادر إلى أذهانهم لم يكن دابة نملة، إنما صيحة ألم هائلة، دفعتهم ليهبوا مذعورين، وعلى ضوء المصباح رؤوا مارداً أسود يصيح من الألم، كان يقفز كقرد، لا يدرون من أين خرج، لكن المشهد أصابهم بالهلع، تشبث بعضهم ببعض، وفي مشهد بدا مسرحيا، تراجعوا مجتمعين خطوات للوراء، يتأملون ذلك المارد الذي تمركز وسط القاعة، كان على حاله، يصيح من الألم، يتنطط ككرة سلة، أوكرجلٍ يتحاشى الوقوف على جمرٍ مستعر.. ثم ما لبثت أن ارتفعت صيحته، قبل أن يعوي ويتلاشى في دوامة دائرية من الدخان اختفت واختفى معها. لتنفجر قهقهة عالية، تكاد تخرم آذانهم، ارتفعوا بأبصارهم وبالمصباح نحو مصدرها.. مارد آخر، نسخة أخرى من ذلك الذي حُرق، كأنما توأمه، يرتدي الزي الفرعوني ذاته، اقترب منهم، توقف إلى يسار المكان الذي حُرق به المارد الآخر، وأشار إلى المكان قائلا: هذا جزاء كل خائن. ثم توجه اليهم قائلا: لماذا أتيتم إلى هنا؟ هذه المقابر بناها أسيادنا من أملاكهم، دون أن يغتصب أحدهم شيئا من الآخرين، حتى العبيدِ

الذين شيدوها، أخذوا أجورا عظيمة، لقد كانوا يدعون الله لهم من أجل ذلك.. فلم أتيتم إليها؟ كيف لكم ان تدخلوا بيوتا ليست لكم من دون إذن؟ كيف لكم أن تأخذوا ما ليس لكم؟ ألم تعلموا أن من يدخل اليها أو يمسها بسوء سيحاكم أمام الإله العظيم؟

لم يجدوا رداً غير مزيدٍ من الصمت وذلك الخوف الذي عصف بهم.. واصل حديثه:

- تواطأتم مع حارس المقبرة، استغللتم جشعه وطمعه، وَ.. تعجله، دفعتم له الرشوة، قدمتم له القربان من أجل ان تدخلوا، وتأخذوا ما ليس لكم.. لقد تسببتم له في أذىً كبير.. في تلك الفترة ما بين الموت وعودة الروح للجسد من جديد، ليس للميت ما يقدمه، فقط يستأمن حارساً أو أكثر يختارهم بعناية قبل وفاته أو يوكل أمر اختيارهم إلى من يأتمنهم بعد مماته.. مهمتهم الحفاظ عليه وعلى ذلك الزاد، نعم، كل تلك المحتويات هي زاده في رحلته إلى الخلود، لامجال للخيانة، إنها ليست خيانة شخص ما زال على قيد الحياة يستطيع أن يدرأ ويدافع، لكنها خيانة لشخص انقطعت أعماله تَوَارُت فعله، لذا يعاقب من يقترفها عقابا قاسياً، يُحرق، ليحرم من الدفن، لتظل روحه مطاردة، في عذاب دائم، يصاحبها العار، وتلاحقها

اللعنة... وبعينين متوهجتين، وصوت حاد كاد يخلع قلوبهم، وجه حديثه مشيرا إليهم:

- أنتم ايضا شركاء في الخيانة، ولكم العقاب ذاته.. الحرق.

٣٤

في حالات الخوف الرهيب كتلك، تعجز العقول كما الألسن عن تأدية مهامها، يقف المرء ضعيفا، شاخصا، صامتا، ترتعد فرائصه.. قد يشعر بالندم للحظات، قبل أن يعيده المشهد إلى فداحة اللحظة. "الْحرَق" يطل بعينيه من عيني المارد الذي يتجه نحوهم بثبات، تتزايد ضربات قلوبهم كأنما تحاول الفرار والنجاة بنفسها، يتشبثون بها إلى آخر لحظة، فرارها يعني موتهم، يصمدون رغم كل شيء. يدنو المارد، قبيل أن يستسلم الجميع لمصيرهم المحتوم، تُشرع نافذة أمل.. كلا.. بل لعله بصيص أمل ليس أكثر.. حدث ذلك حين خاطبهم المارد بذات الحدة:

نحن لا نظلم أحدا.. لا نقتل، لا نحرق، لا نعاقب خارج القانون، والقانون يقول أن تواجدكم هنا يتطلب "كلمة سر"، "كلمة" يجب أن يعلمها كل من يتواجد في هذا المكان وإلا أُدين. نثق أن أحدا هنا لا يمكن له أن يفشي تلك الكلمة، قد تدخلون بخيانة، قد يضعف أحدهم ويفَتح لكم بابا للدخول معتقدا بساطة

جرمه حيث لا سبيل أمامكم للخروج، لكن المؤكد أنه لا مجال على الإطلاق أن يَسُرب أحدهم ذلك السر، فهل تعرفونه؟ عدم معرفتكم يعني أنكم في اتجاه المصير نفسه.. الْحرَق.. أمامكم فرصة أخيرة.. رفع المارد قبضة يده اليمنى إلى مستوى وجهه، ثم فرد الإبهام وقال"واحد" ثم السبابة وقال "اثنان" ثم الوسطى وقال "ثلاثة"، بعدها عليكم فورا أن تخبروني بكلمة السر وإلا حل عليكم العقاب.

ساد صمت مطبق، وقف بعضهم ينظر إلى بعض في ذهول.. دقات القلوب في تسارع، الثواني المتسارعة تؤنبهم، تشعرهم بقيمة الوقت وهم من أهدروا منه الكثير.. رفع المارد ذراعه ببطء، العيون معلقة بقبضة يده المغلقة، حين استقرت في مستوى وجهه، فرد إبهامه عادا "واحد" ثم سبابته"اثنان" ثم اتجه صوب الوسطى وقبيل أن يقول "ثلاثة" خرج صوت من قلب الخوف صائحا: "ثلاثة"، لا يدري عطية لماذا قالها؟ ربما أنها الغرف الثلاثة التي أوحت له، أو لعلها المهلة التي منحها لهم المارد والتي ذكرته بالرقم "ثلاثة". قالها عطية يائسا، إذ ليس هنالك ما يفقده بعد الموت، ومن يدري، يا صابت يا خابت..

٣٥

حافظ المارد على ذات المسافة معهم، تخلى عن حدة وجهه، وبدا وديعا مستأنسا وقد هدأت عيناه.. لم يشر إلى كلمة السر ولا صحتها من عدمه، وإنما ترك الأمر معلقا. تحرك قليلا بعد أن تخلى عن بعض هيبته، قال وهو يوليهم دبره:

- تريدون المال إذاً؟.. تريدون الكنوز؟ أليس كذلك؟

"حسنا"قالها حين لم يجد رداً ، وواصل:

"حين تولى الإله " مرنبتاح" خلفا للملك رمسيس الثاني، كانت الدولة تواجه مخاطر كبيرة، داخليا وخارجيا، فكان هناك الليبيون حيث فرت قبائلهم من قسوة العيش وندرة الماء وأرادوا أن يستوطنوا بلادنا، وفي الداخل كان هناك موسى بن عمران بدعوته ورغبته في خروج بني اسرائيل، انتصر الملك على أعداء الخارج لكنه لم يستطيع أن ينتصر على موسى، كان لابد من أن يستميل أشخاصاً نافذين من بني اسرائيل، فاستمال قارون، وأغدق عليه، ورغم أن قارون كان من بني اسرائيل إلا أنه كان ميسوراً ، وازداد مالاً وجاهاً بعد أن أصبح من حاشية الملك مرنبتاح، وعينه وزيراً لشئون العبرانيين.. كان سيدي قارون يفاخر بماله ويقول إنما اؤتيته على علم عندي، كان يشير إلى قدرته على تحويل التراب إلى ذهب ، ولأنه لديه تلك القدرة لم يكن يهتم بما قد يصله من اتهامات أنها ثمن خيانته لـ "بني اسرائيل".. في ذلك الوقت، كان هناك رجل من بني اسرائيل يدعى "يصهر"، وكان من حاشية قارون، لكنه كان

مختلفا عن الآخرين، لم يكن حب قارون له لكونه يحمل اسما مشابها لاسم أبيه، وإنما لكونه ناصحا أمينا، كان يسدي له النصيحة تلميحا لا تصريحا، وربما كان هذا سر تمسكه به، كان يقدم له النصيحة على أنها فكرته أو بفضل توجيهاته، كان يمتدحه قائلا: انت أحسن الأصوات، قارعهم بما لديك، اتل التوراة التي يتلون، وأرهم كيف تكون الأصوات، فكان صوته الأجمل، كان يقول له أن موسى أخذ النبوة وهارون القربان، وأعطاك الله المال.. مرات كان قارون ينظر اليه بريبه حين يكررعليه النصيحة في أمر ما، لكنه سرعان ما يطرد تلك الظنون ويطمئن نفسه بأن يصهر بالفعل ناصح أمين ويغدق عليه بالعطايا، كان يصهر يوزع منها الكثيرعلى فقراء بني اسرائيل.. وفي يوم ما كان كعادته يوزع العطايا على فقراء بني اسرائيل إذ بأحد المقربين من موسى بن عمران ينصحه بالابتعاد عن قارون لأن مخالطة الأشرار تسقطهم معهم في الشر كما قال، فانعزل يصهر، وأعد مقبرته هذه، ووضع فيها كنوزه وكل ما يحتاجه وما يعينه على رحلته للخلود، ووضع عليها حراسا أشداء مؤتمنين، تحسبا لموته وخشية من النهب، هو يعلم أنه سيحتاج إلى كل ممتلكاته تلك حين تعود الروح للجسد حيث الحياة الأبدية.. وقد منحني يصهر شرف حماية هذا المكان وأعطاني صلاحية الإشراف عليه وأن أنفق بالقدر الذي يمكنني من الحفاظ عليه بالشكل الذي يليق به وليكون جاهزا حين يحتاج اليه..

لامكان للخيانة والغدر هنا، لا نقبل رشاوي وقرابين، ومن يفعل يعاقب، لكن من سلطتنا أن نعطي للعبيد مقابل خدماتهم وإطاعة أوامرنا، فإن أردتم أن نعطيكم عليكم أن تكونوا عبيدا هنا لثلاثة أيام على الأقل، نأمركم فتطيعوا، بعدها بإمكان أي منكم أن يحمل ما يستطيع من كنوز ويخرج به ولمرة واحدة، الأمر ليس فرضاً، بل طواعية، إن أردت المال عليكم أن تكونوا عبيدا على أن نتكفل بمأكلكم ومشربكم وتأمينكم لثلاثة أيام، وإن رفضتم فالأرض واسعة، انطلقوا بسلام، لن يمسكم منا أذى".

وقبل أن يختم حديثه كشف لهم سرا خطيرا، ذلك السر الذي لا يعرفه أحد غيرهم، والذي مكن فاطمة من المغادرة..

٣٦

كان عَرْضُ المارِد مغرياً، إذ أنه لا يمنحهم فقط فرصة الحياة من جديد وإنما أيضا يمنحهم المال، صحيح أنه ربطها بالعبودية لثلاثة أيام، لكن لماذا نسميها عبودية؟! هي خدمة مقابل المال، لاشيء مجاني.. لاشيء دون ثمن، ولا قيمة لما لا ثمن له. كل الأعمالِ يقابلها أثمان ويحكمها اتفاق يضمن تنفيذه جهات بعينها، لكن من يضمن تنفيذ ذلك الاتفاق؟ لا جهة محايدة أو سلطة يمكنها أن تضمن اتفاقا كهذا وتلزم أطرافه بتطبيق بنوده، ورغم ذلك شيء

ما بدواخلهم يدعوهم للقبول. لايمكن لهم أن يغادروا دون تلك الكنوز وقد باتت في مرمى اليد. الغريب أن كل الكنوز التي يمكن حملها ذهبية، بما يعني أنه لا مجال لحمل آثار أخرى يحتاج حملها إلى معدات ثقيلة، كما أن العودة مرة أخرى إلى المكان ليست متاحة. ثم أن صِدق المارد يضمن هذا الاتفاق. هذا الصِدق الذي تمثل في ذلك السر الخطيرالذي أفشاه لهم، لقد أوضح لهم سر خروج فاطمة، كان بإمكانه أن يفرض الأمر قسراً لاسيما أنه في موقع قوة، لكنه أرادها طوعية. أفشى السر من تلقاء نفسه، قال: بإمكان أيكم أن يرفض الاتفاق ويخرج فورا، لكن إن فعل عليه أن يخرج دون أن يحمل معه أي شيء، لأن باب الخروج لا يسمح بعبور الأجسام المعدنية، حيث يختفي الدرج على الفور بمجرد أن يقترب منه أي جسم معدني ويحل محله ذلك الشعاع النوراني. حين خرجت فاطمة لم تكن تحمل أي معدن بعد أن تجردت من ذهبها.قبل أن تغادر. "إذا الأمر ليس قهراً وإنما طواعية" قالوها لأنفسهم ثم أردفوا: فلنكن لأيامٍ عبيدا أو مستخدمين، لا يهم التسمية، المهم أننا سنحصل على المال ومعه سنهرب أيضا من الموت. حين سأله عطية عماهية العمل، أجابه المارد وقد اكفهر وجهه: ليس المهم نوعية العمل، المهم أن تكونوا عبيدا.. لي الأمر وعليكم الطاعة..

كادت تجن حين خرجت من الحفرة ولم تجد صغيرها؛ هرعت نائحة إلى نقطة الشرطة، تطلب الغوث. ربطت بين انتظارها الطويل وحجم القوة التي رافقتها والتي لم تجد تفسيرا منطقيا لضخامتها، لم تكن تعلم فيما يفكرون، لم تكن تعلم أنهم أمام صيد ثمين، صيد ستكتب عنه الصحف، ستنشر صور القادة، سيبث التليفزيون مشاهد من تلك المداهمة، سيعقبها عدد من التكريمات لقيادات ساهرة على أمن الوطن وممتلكاته، وسيتحدث الجميع عن تلك الضربة الموجعة لمافيا الاتجار بالآثار، ولصوص التاريخ.. لم تعلم فاطمة شيئا عن هذا، ولم تفكر في شيء من هذا، كانت فقط تفكر في رضيعها المفقود وزوجها المحبوس تحت الأرضِ مع آخرين.. حين وصلت القوة إلى مكان الواقعة، أصيبت بخيبة أمل، لا أثر لشيء ما حدث هنا، الأرض مستوية، لا أثر لحفرة، لا معدة أو أداة حفر واحدة، كل شيء بدا طبيعيا.. سألها الضابط بريبة:

- أمتأكدة أن أحداً تحت الأرض؟

قرأت ما جال بخاطره، إنه يشكك في قواها العقلية، أجابت بيقين:

- نعم.

سأل:

- كم عددهم؟

قالت:

- ثلاثة.

مستغربا:

- وأين الحفرة؟!

لم تجد ما تقوله غير الصمت، لم تعلم أين ذهب رضيعها؟ أين ذهب زوجها ومن معه؟ كيف اختفت الحفرة في ساعات واختفت معها كل أدوات وآثار الحفر؟ ربما ربطت لحظياً بين ذلك الاختفاء واختفاء الدرج، ربطت بينه وبين التعويذات والطلاسم والعالم السفلي لكن تفسيراً منطقياً واحداً لما حدث لم تجده.. تسرب الشك اليها، هي ليست مجنونة، حاولت أن تقنع نفسها بذلك، كل شيءٍ حدث أمامها، بل هي ذاتها جزء من الحدث، هنا تم الحفر، هنا نزلوا، ومن هنا خَرجت وتركتهمقد يُسَرق رضيعها، وقد يُقتَل وتُباع أوصاله، تعلم جيدا أنها هي السارقة لا اللصوص، تعلم أنها القاتلة لا القتلة، ما كان ينبغي لها أن تتركه وحيدا بالساعات، قد تكون مجرمة، لكنها أبداً ليست مجنونة..ليست مجنونة، كررت عبارتها ثم انهارت تبكي في حين انسحبت القوة حزينة بعد أن خاب أملها في العودة بصيد ثمين كان تمني نفسها به.

٣٨

لم يعد يدهشهم شيء، لا شيء اسمه مستحيل، كل الخوارق يمكن أن تحدث، لو قابل عطية زميل دراسته لن يكذبه مرة أخرى وهو يخبره أن النعش طار بالميت وعبر به النيل.. لن يكذب زميله في المتحف حين كانا يتحدثان سويا عن تهريب الآثار وقص عليه أن أحدهم اشترى المساخيط ووضعها في حقيبة سيارته بعد أن دفع قيمتها، وحين وصل إلى بيته وفتح حقيبة سيارته لم يجد شيئا، وبالسؤال قيل له أن المساخيط كالحمام، تعود إلى موطنها مرة أخرى.. لقد رأى وشاهد بأم عينيه، شاهد الأرض وهي تبتلع الجثث من تلقاء نفسها، شاهد الدرج يختفي ويحل محله ذلك الشعاع النوراني، شاهد المارد وهو يحترق ويتوارى، وشاهد آخراً يؤُمن لهم كل شيء.. ما رأه عقب انتهاء المهلة كان أغرب من الخيال، بل هو الخيال ذاته، ومع ذلك لم يندهش.. أيام ثلاثة قضوها عبيدا، لا يذكر أي منهم تفاصيل ماحدث، الذاكرة بدت مثقوبة، خاوية، صفحة بيضاء لا شيء فيها، لا يتذكر أي منهم كيف عاشوا وماذا فعلوا، هل رفعوا أحجارا أو عملوا سخرة، هل نظفوا التماثيل وأعادوا ترتيبها، ما مظاهر العبودية التي فعلوها؟ لا أحد يذكر شيئا، ربما أنهم لم يفعلوا شيئا على الاطلاق.. منتهى العبودية أن تؤمن في داخلك أنك عبد، وقد كانوا كذلك، ويبدوا

أنهم لم يفعلوا شيئا آخر، أو على الأقل أنهم لا يذكرون أنهم فعلوا شيئا آخر.

الصمت الذي غلف المكان كان صاخبا لدرجة لا تطاق، غير أن أحدهم لم يتطوع لجرحه، كل منهم كان يفكر فيما حدث، يستحث الذاكرة، يعصر فكره عله يتذكر شيئا، لكن لا رواسب علقت بالذاكرة، كل شيء تبدد كسائل هرب من قاع مخروم. يعربد الصمت وحيدا سيدا، قادما من هناك، حيث بحيرة قارون ماراً بذلك الخلاء المخيف،عابرا لظلام ليلٍ غاب عنه القمر، ليُسَمع صاخبا مدويا في تلك الغرفة وعلى مقربة من صورة أبيه المعلقة فوق الحائط..

حين انتهت المهلة وجد ثلاثتهم أنفسهم خارج الغرف الثلاثة، كُلٌ أمام غرفته التي خُصصت له، لايذكر أي منهم شيئا مما حدث. وكأن الزمن قد توقف عند لحظة موافقتهم على عرض المارد. كان المارد يتوسط القاعة، في ذات المكان الذي وقف فيه من قبل، على مقربة من ذلك المكان الذي عوقب فيه المارد الآخر، ربما الذي أدهشهم هي تلك البسمة التي طرأت على وجه المارد حين وقف في منتصف القاعة ليخبرهم أن المدة قد انتهت، غابت الدهشة واشرأبت الأعناق تتابع المارد وهو يقول: " بإمكان كل منكم الآن أن يحمل ما يطيق و يمضي في سلام.. ثم واصل:

أرأيتم؟.. أرأيتم كيف نوفي بالعهود، أرأيتم كيف أننا لا نخون، لا نغدر.. الطريق ممهد أمامكم للخروج، ليس أمامكم وقت كثير، ليحمل كل منكم ما يطيق ويغادرعلى ألا يعود إلى هنا مرة أخرى. عودة أي منكم تعني أنكم نقضتم العهد، وأظنكم تعرفون الجزاء. صَمت المارد يتأملهم وكأنه يودعهم، ثم ضحك عاليا من أعماقه حتى كاد المكان يرتج لصدى ضحكاته، قبل أن يتلاشى..

هرعوا باتجاه الكنوز والعملات الذهبية، حمل كل منهم ما استطاع أن يحمله، وكلما همَّ أحدهم أن يخرج، عَصُب عليه أن يترك كل تلك الكنوز، فيبتكر وسائل أخرى تمكنه من حمل المزيد. ابتدعها عطية حين خلع ملابسه حتى بدا شبه عارٍ، وعبأها بالعمولات والتماثيل الذهبية، الأمر ذاته فعله طه وفعلته ريري.. هموا بالمغادرة، وبمجرد أن وطأت أقدامهم بداية الدرج حتى وجدوا أنفسهم بالخارج، مباشرة في مواجهة الباب الخشبي لمنزل عطيه، محملين بالكنوز. لم يدهشهم شيء، فقد أخذوا جرعات مضادة للاندهاش من كثرة ما رؤوا، كل شيء يتجاوز الاستيعاب يردونه إلى مخلوقات منحها الله تلك القدرات الخاصة.

كان الليل يستعرض عضلاته في غياب أي ضوء يذكر. أسرع عطية ودس مفتاحه في الباب، وبحذر شديد فتحه دون أن يحدث صوتا.. لفترة ليست بالقصيرة ساد الصمت، لم يفكر أي منهم حتى في ارتداء ملابس أخرى تستره، ظل كل منهم على حاله،

يطالع الكنوز، يجتر الذكريات، يحاول عبثا أن يستوعب. نظر عطية منتشيا إلى صورة أبيه المعلقة على الحائط، كأنه يريد أن يقول" هاأنذا نجحت" الكنوز التي طالما حلمت بها، هاهي بين يدي الآن، سترى ما أنا فاعل بها. وراح يقسم في نفسه بأغلظ الأيمان أن تطأ أقدامه الرقاب، وأن يمحو كل من يقف في طريقه نحو السيادة. لا يدرى وقتها لماذا تذكر زميل دراسته سامي محمود الطحاوي وهو الذي لم يتذكره من قبل؟ كان الأقل رياضيا ومع ذلك كان يمثل المدرسة في المسابقات الرياضية، فتق عين أحد الزملاء ولم يعاقب، كل ما فعله أن والده تحمل نفقات علاج العين والتي لم تعد إلى طبيعتها، كان يمشيان سويا فيحتفى بسامي ولا يلتفت إليه أحد، حين تخطى المرحلة الابتدائية وبدأ يستوعب أرجع الأمر إلى أموال أبيه التي تجعل المستحيل ممكنا. عاد إلى نفسه وقد استشعر خطورة تواجدهم في هذا المكان، قد يلفت وجودهم انتباه فاطمة التي ما تزال تحتفظ بنسخة من المفاتيح.. عليهم المغادرة سريعا، لكن كيف ذلك وقد تجاوز الليل منتصفه، الطريق مقطوع، والظلام دامس، كيف لهم الخروج محملين بكل تلك الكنوز؟ لكن خطر البقاء أعظم، قالها عطية وقد جرح الصمت الطاغي قائلا:

- علينا أن نذهب سريعا؟

ردت ريري:

- فلننتظر للصباح .. في النور.

تضامن طه مع عطيه:

- فعلا، علينا أن نرحل سريعا..

لكن.. كيف لنا أن نرحل؟ سؤال فرض نفسه عليهم ليس فقط لصعوبة الأمر عمليا، لكن ايضا للريبة التي ساورت بعضهم تجاه بعض. في مثل هذه الحالات يحدث الغدر. إنها فتنة المال. نظر بعضهم إلى بعض في صمت، امتلك طه المبادرة قائلا:

- نحن في مركب واحد، إن خرمه أحدنا غرق الجميع، لنتعاهد سويا على ألا نغدر، ثم مد يده قائلا: "لنقرأ الفاتحة".

تردد عطية قليلا، نظر إلى ريري التي التفتت اليه في ذات اللحظة التي نظر اليها، للحظات سكن المشهد قبل أن يعاود عطية النظرإلى طه، ثم وضع يده في يده، وما لبثت ريري أن أَمَّنَت على الاتفاق ووضعت يدها هي الأخرى، وراحوا جميعا يقرؤون الفاتحة. وما إن فرغوا حتى واصل طه حديثة وقد وجه نظراته صوب عطيه:

- أمامنا خطوتان، الأولى: أن تدبر لنا بعض الملابس تواري عوراتنا، أو تضع الكنوز في أشياء أخرى لنرتدي ملابسنا. الخطوة الثانية: سأتواصل مع صديق قريب من هنا يأْمن لنا نقل الكنوز سنتولى تصريفها، لدينا خبرات في ذلك. ودفعا لنظرات الريبة التي عادت إلى عيني عطيه، قال طه:

لقد تعاهدنا على عدم الغدر، ولزيادة الاطمئنان، ومن منطلق إذا تداينتم بدين، سأكتب لك ورقة بمبلغ كبير تستخدمها وقت الحاجة.

لم يكن أمام عطية بدُ من الموافقة، لا شيء آخر يمكن له أن يفعله. لقد خطط لكل شيء.. وضع سيناريوهات عدة ليس من بينها هذا السيناريو.. الهدف المسبق كان استخراج الكنوز إن وجدت، والاحتفاظ بها في بيت فاطمة ومن ثم التفكير في الخطوات اللاحقة.. الآن وبعد كل ما فعله مع فاطمة وتوفيرا لنصيبها لا يمكن العودة اليها، ثم إنه من الجائز أن تكون قد أبلغت الشرطة، الأمر الذي يعرضهم للخطر. ترك عطية نفسه لـ طه الذي خرج ليجلب سيارة، كانا يعلمان أن رفاقا له في كل مكان.. ساعتان مرتا ولم يحضر طه، الانتظار مقلق، الفجر بات وشيكا.. حين سمع قلقة الباب ظن عطية لأول الأمر أنه طه، لقد منحه مفتاحه لئلا يلفت دخوله الانتباه، لكنه تراجع حين لم يسمع هدَير سيارةٍ بالخارج. دُهش عطية حين رآها، ما الذي جاء بفاطمة الآن، هل رأتهم؟ هل شعرت بهم كما حدث معه من قبل؟ أمسك عطية بعكاز أبيه الغليظ الذي كان يتوكأ عليه، اختبأ ريثما تخطته بقليل ثم هوى به على مؤخرة رأسها لتسقط أرضا بلا حراك.

تسمر عطيه في مكانه. ظل ينظر إلى فاطمة بلا معان محددة. هدير السيارة التي جاءت للتو لم يحرك فيه شيئا، ظل يتأملها بعمقٍ

أدهش ريري. حين دخل طه لم يتوقف كثيراً عند المشهد، إنما استنهضهم، الوقت يداهمهم، عليهم أن يخرجوا من هذا المكان قبل آذان الفجر.

حملوا الكنوز سريعا إلى السيارة. وقبل أن ينطلقوا استوقفهم عطيه. كادوا ينفجرون في وجهه حين عرض عليهم نقل فاطمة إلى بيتها. تساءلت ريري عن سِر الحنية التي ظهرت فجأة، امتعض طه كثيرا حيث لا وقت لتلك العواطف. لم يميز عطية إن كان الأمر شفقة كما بدا لهما أم أنها دواعي أمنية كما حاول إقناعهما. وجودها هنا ولو جثة هامدة سيشير بأصابع الاتهام اليه وستطارده الشرطة أينما حل.

الفصل الثاني

أسياد..

أن يتمنى أحدهم أن يقف إلى جوارك، أن تمنحه إيماءة أو بسمة عابرة، أو يشاركك بعض أعمالك، أن يلتقط معك صورة، أن تخصه بحديث، أن يكون محاميك الخاص، أو دكتورك، أوسائقك الخاص.. أن يتهافت عليك الناس وأنت هنالك في عليائك.. فأنت إذاً سيد وَمن دونك عبيد..

١

الصمت ليس دائما علامة رضا.. قد تصمت مرضا، قد تصمت قهراً، قد تصمت صبراً.. وفي أغلب الأحوال تصل الرسالة إلى من يهمه الأمر أن الصمت رضا.. اختارت دائرة بولاق أبو العلا مرشحها لمجلس الشعب بإرادتها.. اختارت طواعية رجل الأعمال، الوجيه "عطية سعيد أحمد"، ممثلا لها في مجلس الشعب. صحيح أن بعض رجالاتِ الرجل وفي مراحل سابقة للانتخابات وزعوا الأموال والهدايا لاسيما على عِلية القوم، وصحيح أن وتيرة التوزيع زادت قبيل الانتخابات، وزاد معها أعداد العاملين من أبناء الدائرة في مصانع الرجل، إلا أن أحداً لم يفرضه عليهم. طواعية وبمحض إرادتهم هتفوا له وأقاموا الفعاليات الداعمة. طواعية تبرعوا بعمل اللوحات وطبع وتوزيع المنشورات على نفقتهم الخاصة. طواعية دعموه بكل شيء، وظهر الرجل في فعالياتهم تلك بكامل أناقته وحيويته، وعنفوانه. ظهر شاباً على مشارف الأربعين، يرتدي أفخم البدل، تطغى رائحة عطره الثمين على روائح العرق المنبعثة منهم. لم يتجمل الرجل. لم يرتد ملابس شعبية. لم يترك سيارته المرسيدس ويستقل ميكروباصاتهم وباصاتهم المتهالكة. لم يجلس في مقاهيهم. لم يذهب إلى سرادقات العزاء ويجلس إلى جوار كبار القوم، لم يشاركهم التهاني في الأفراح، ولم يعلق لافتات التهنئة

لمنسوبي الدائرة في مناسبات الأعياد.. لم يفعل الرجل أياً من هذا، لم ينزل اليهم كما يفعل البعض، بل هم من ذهبوا اليه، يترجونه حد التوسل أن يكون ممثلهم.. يقف العقل حائرا، عاجزا، أمام تفسير ذلك السلوك.. ربما أنها ثقافة البحث عن قائد قوي، تلك الثقافة المتجذرة فينا.. البحث عن المنقذ، المخلص، البحث عن القائد الفذ، الملهم، البحث عن الفرعون.. هو لا غيره، الشخص القوي القادر على تسيير المركب، ربما يكون الخوف من الانزلاق إلى الفوضى هو دافعهم، ربما الخوف على أقواتهم، ربما العشم في الحصول على بعض المزايا، أو تكرار تجربته الناجحة على مستوى أوسع، أو الاستظلال بجبروته، أو ربما.. و ربما.. أو.. ربما بحثاً عن كرامة غائبة، الإمعان في قهر وامتهان الناس قد تدفعهم للبحث عن مخلص يحتمون به ولو كان ديكتاتوراً.. هذه التفاسير هي ذاتها التي تجعلهم يقبلون بقائد أو مسئول كبير اكتشفوا لاحقا وبعد أن قدموه ورفعوه، أنه ظالم، ديكتاتور، فاسد. يلوذون بالصمت، لتصل رسالة الرضا عبر الوسطاء إلى من يهمه الأمر.. رسائل الرضا وصلت إلى عطية من منسوبي دائرته عبر رجاله المحيطين، كما وصلته الرسالة ذاتها من منسوبي مصانعه وشركاته.. فظل عاليا.. سيدا..

٢

كان حفلا فخما، يليق بصاحب الدعوة، الدكتور "حازم أبو النجا"، رجل الحزب الحاكم في مجلس الشعب، وأحد أركان الحكم. الحفل مقام على شرف ابنته الوحيدة "هايدي" و التي نجت بأعجوبة من حادث سيارة مروع، التأويلات عديدة، والهمس لا ينقطع، بل أنه تخطى الحجرات المغلقة إلى صفحات جرائد المعارضة.. ترجع القصة إلى عام مضى حين تسربت أخبار عن طلاق "هايدي" ابنة المسئول الكبير من زوجها الثاني رجل الأعمال " أحمد صبري" والذي يصغرها بسنوات عدة، أرجع البعض الطلاق إلى غراميات رجل الأعمال الشاب. وازدادت فصول القصة إثارة بتناول الصحف خبرا عن حادث مروع تعرضت له ابنة المسؤول الكبير عقب أيام فقط من طلاقها. كانت تقود سيارتها بسرعة جنونية عندما جنحت السيارة وانقلبت بها وأصبحت كتلة مصمتة من المعدن. احتجزت هايدي في مستشفى كبيرلأيام قبل أن تسافر لاستكمال العلاج خارج البلاد، في تلك الآونة نقلت الصحف خبر مقتل رجل الأعمال " أحمد صبري"، دهسته سيارة مجهولة ثم لاذت بالفرار. خبر كهذا لم يكن ليمر دون همز ولمز داخل الغرفات المغلقة ليتسرب عبر نوافذها إلى صحف المعارضة. التلميحات كانت لا تخطئ هدفها، " من يقف خلف مقتل رجل

الأعمال أحمد صبري؟" تتساءل إحدى صحف المعارضة. ومع كل الضجة التي صاحبت القضية إلا أنها كغيرها من الأحداث المشابهة طُمست بفعل أحداث جديدة، فالحياة سريعة والأحداث التي تشغل الناس متلاحقة، لاتتوقف.. شهور مرت وعادت السيدة الجميلة معافاة من الخارج، رغم ما يشاع همساً أنها لن يعد بمقدورها الإنجاب بعد الآن.. حفل اليوم احتفاء بعودتها إلى أرض الوطن، حضر لفيف من كبار المسئولين ورجال الأعمال، كان من بينهم النائب البرلماني ورجل الأعمال اللامع "عطية سعيد أحمد".. الأحاديث الجانبية لا تخلو من الصفقات والتربيطات، الخدم يطوفون بصوانٍ تحمل مشروبات شتى، الحضور في انتظار سيدة القصر.. عزفت الموسيقى وتأهب الحضور حين تجلت لهم بالطابق العلوي في مواجهة السلم الملتوي الذي يتوسط الفيلا ويفضي إلى الدورالأرضي حيث بهو الفيلا الفسيح. وقفت للحظات في مشهد بدا مسرحيا، بدت فيه كنجمة تتلقى تحية الجمهوروتمنح المصورين شرف توثيق اللحظة. ثم بدأت بالنزول. كانت بكامل أناقتها ورونقها، ترتدي فستان سواريه أبيض كَشَف منابت نهديها.. خمسة وثلاثون عاما لم تترك أثراً على ملامحها، بدت شابة عشرينية.. جسد ممشوق، وجه أبيض مستطيل، عينان لهما زرقة البحر، شعر كستنائي، نهدان ناهدان.. تهادت في شموخ يواري غيمة حزن سكنتها، تهبط درجات السلم مشرئبة الرأس في إباء يستند إلى

سلطة أبيها ويكشف جانبا من شخصيتها القوية. تحركت صوب أبيها، تتلقى تهنئة الحضور بابتسامات بخيلة لا تظهر شيئا من أسنانها.. كونها الوحيدة فقد ملكت هايدي قلب أبيها. لم يشاركها في قلبه أحد، ماتت الأم، لم يتزوج الرجل بأخرى، ربما حرصا على مشاعر ابنته، أو لأن نزواته وحفلاته الخاصة تغنيه عن الزواج. المحصلة النهائية أن هايدي استحوذت على قلبه، فأضحت ملكة متوجة. طلباتها أوامر واجبة التنفيذ في الحال، تشير فيستجاب لها.. زوجها الأول ظفرت به بعد صراع بينها وبين إحدى صديقاتها، ثم ما لبثت أن تركته بعد شهور. ورغم ما يشاع عن عصبيتها وعنفوانها إلا أنها تظل هدفاً للخطاب وطالبي السلطة، ولم لا وأبوها هو من هو! تقدم لها رجل الأعمال الشاب أحمد صبري، ابن المليونير صبري عبد المنعم صاحب الشركات والمصانع، والباحث عن سلطة تسند ظهره. تم الزواج، لكن مغامرات الشاب التي فاحت رائحتها جرحت كبرياء زوجته وأسرتها، تريثوا قليلا في الطلاق لاسيما أن الزواج أفضى إلى مولودة أَسْموها "سوزي" كما أن الطلاق للمرة الثانية لابنة مسئول كبير له تبعاته السياسية، لكن تبعات الفضائح كانت أكبر، فكان لزاما وضع حد لهذا الزواج الذي استمر قرابة العامين، وكان الطلاق. الأخبار المسربة تشي أن السيدة هايدي كانت في قمة العصبية في الأيام الأخيرة، أرجع البعض ذلك إلى التسريبات التي تتحدث عن

سبب طلاقها، وأنه لا يعمر معها زوج، وأنها تستغل منصب والدها وتتعامل مع أزواجها كعبيد.. لم يستطع والدها أن يفعل شيئا تجاه تلك الأقلام، بعد أن نصحه البعض بالتجاهل، المواجهة ستصنع من هؤلاء النكرات أبطالا ولن تخرص الألسن. هكذا جاء مضمون النصيحة التي عمل بها، لكن الأمر كان له أثره على هايدي، فبدت عصبية. في طريق عودتها مسرعة من مول كبير انحرفت بها السيارة، وكان الحادث المروع.. جلست هايدي، إلى جوار والدها، تجول ببصرها بين الحضور كمن تبحث عن ضالتها، توقفت عند عطية مرات عدة، تتأمله بنظرات ثاقبة. كان عطية أنيقا، ملفتا للنظر، واثقا. لكنه شعر بالقلق من تكرار استهدافه بنظراتها تلك..

كان الليل قد انتصف حين عاد إلى فيلته، استبدل ملابسه، وما إن وضع جسده على الفراش إلا وتراءت له وهي تتأمله، كان اهتمامها به باديا للعيان، حتى أنه شعر بالخجل. لم يكن يعلم سر هذا الإهتمام. لم يلتقِها من قبل، فلماذا إذاً خصته دون غيره بتلك النظرات؟! في طريق بحثه عن سر هذا الإهتمام حاصرته أسئلة عديدة، حين عجز عن إيجاد أجوبة لها استسلم للنوم. وما إن غفا إلا واستيقظ مجددا على رنات الهاتف. علت الدهشة وجهه حين علم شخصية المتصل، وتعاظمت تلك الدهشة حين علم سبب الاتصال.

٣

كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساء حين انطلق عطية بسيارته المرسيدس السوداء صوب فيلا الدكتور "حازم أبو النجا". منذ اتصل به الدكتور في ساعة متأخرة من مساء الأمس ليدعوه إلى العشاء ولم يعرف النوم طريقا إلى عينيه. كان معه البارحة، فلماذا يدعوه اليوم؟ يتساءل عطية ثم يواصل: هل من علاقة بين تلك الدعوة واهتمام ابنته الذي بدا جليا بالأمس، أم أن الأمر تعلق بالأعمال وتربيطات المجلس؟.. بالأمس حين التقاه عبر له عطية عن فرحته بذلك اللقاء، وكشف له عن اهتمامه وإعجابه به، وأنه متابع جيد له منذ زمن. قص عليه مضمون كلمته التي كان قد استمع إليها يوم تعرف على ريري، ربما كانت المرة الوحيدة التي استمع فيها إليه، لكنه أجاد توظيفها في التدليل على اهتمامه وإعجابه بالرجل.. كان وقع اللقاء جيدا، هكذا شعر عطية على الأقل، فهل للدعوة علاقة بالأمر؟ هل دخل دائرة اهتمام الرجل؟ هل يصبح عطية قريبا من رجال الحاشية؟ كعادته توقف عن التفكير حين عجز عن ايجاد ايجابات للأسئلة التي تراكمت عليه وتشعبت قبل أن يقهره النوم فيستسلم له مجهدا. ترجل عطية من سيارته التي توقفت أمام مدخل الفيلا، عدل من رابطة عنقه ثم دلف إلى الداخل محاصرا بتلك الأسئلة التي لم يعثر لها على

إجابات. اصطحبه الخدم إلى مكان اللقاء، ظل في الانتظار دقائق يتأمل المكان الذي في وصفه يكتفى بالقول أنه كان فخما يليق بشخصية كتلك، لمسة جمال وفخامة تحيط بك أينما نظرت.. قطع تأمله عطرها الذي انتشر مع الهواء معلنا عن قدومها.. جاءته هايدي كأبهى ما تكون، غابت عنها سحنة الحزن التي مستها البارحة، لم تكن بخيلة هذه المرة حين منحته تلك البسمة التي كشفت عن صفي أسنان بيضاء كاللؤلؤ. مدت ذراعها الأيمن في شموخ وقد أْحنَت كفها باتجاه الأرض كأنما تأمره أن ينحني ويقبل يدها، أذعن برضا وشت به ابتسامته، انحنى قليلاً وبلطف قَبَّل يدها..

- اتفضل .. قالتها وهي تشير إليه بالجلوس.

ساد صمت للحظات، بادرته:

- الوالد يعتذر لك، سوف يتأخر قليلا..

رد بتواضع مصطنع:

- نحن في خدمة الوالد وفي انتظاره في الوقت الذي يريد.
- الحقيقة أنا سمعت عنك الكثير، ليس هذا فحسب بل وسألت عنك ايضا.
- شرف كبير لي ياهانم أن أكون محل اهتمامكم.

- بالفعل انت محل اهتمامي، ولهذا انت هنا اليوم ولهذا ايضا، وإن لم يكن لديك مانع نلتقي بمفردنا في مكان خارجي لنتحدث بأريحية أكثر.

تلعثم قليلا لربما كان الأمر اختبارا له.. راح يقسو عل نفسه، ماذا يحدث لك يا عطية؟ لو وافقت لربما كان كمينا ولو رفضت ربما أغضبت الباشا وابنته؟

رد بعد لحظة صمت لم تطل:

- أنا في خدمة الباشا وفي خدمتك ياهانم.
- إذن اتفقنا.. سوف أتصل بك لنحدد الزمان والمكان.

لم يكن لدخول الباشا لاحقا ولا للعشاء الفاخر وكلمات الإطراء المتبادلة أهمية تذكر بعد أن أزيح الستار عن سبب الدعوة وسر الإهتمام.. لقد بات عطية هدفا لسهام "هايدي هانم أبو النجا".. لقد بات أقرب إلى القمة من أي وقت مضى.

٤

أن تكون سيدا ومن دونك عبيد!.. أن يتمنى أحدهم أن يقف إلى جوارك، أن تمنحه إيماءة أو بسمة عابرة، أو يشاركك بعض أعمالك، أن يلتقط معك صورة، أن تخصه بحديث، أن يكون

محاميك الخاص، أو دكتورك، أو سائقك الخاص.. أن يتهافت عليك الناس وأنت هنالك في عليائك.. فأنت إذاً سيد وَمن دونك عبيد.

أن تجلس في مكتبك الفخم، تُمسك بسيجارك الكوبي، تنفث الدخان أمامك، غير مكترث لتأذي ذلك الرجل الذي جلس منحنيا، ماطا عنقه باتجاهك، في انتظار كلمة تلقيها على مسامعه، كلمة يحملها مبتهجا إلى أعلى القيادات، يبشرهم أنه نجح في إقناعك بالانضمام إلى حزب الحكومة.. إنك إذا سيد وَمن دونك عبيد.. جلس عطية مشرئباً، كأنما يفكر.. كان يعمل بنصيحة أحد المسؤولين، قالها له يوما وكأنه يفشي له سراً حربيا، فتلك النصائح لا تقدم إلا للغاليين كما قال، حين طلب منه أحدهم خدمة بسيطة، خدمة لن تكلفه شيئا، عندها تدخل عارضاً خدماته ونصائحه، تلك النصائح التي لايبوح بها إلا لمن يُ َقدِّر، وكيف يبيح بها وهي سر من أسرار عمله، ومصدر من مصادر دخله! يومها نصحه ألا يجيب هذا الطلب على الفور رغم بساطته، عليه أن يتأخر، وأن يبرز كم تكبد من عناءٍ لإنجاز تلك المهمة، لو فعلها سريعا لبدت خدمة بسيطة غير مقدرةٍ، عليه أن يشعره بأنها خدمة كبيرة لينتظر مقابلا كبيراً حتى ولو لم يكن ماديا كان فضلاً وجميلا..

ظل عطية على صمته بعض الوقت، والرجل على حاله في انتظار الموافقة، أطفأ عطية سيجاره وبدأ حديثه:

- أقدر لكم تلك الثقة، ولكنكم تعلمون مدى انشغالي، وتلك مسئولية كبيرة، ربما وصلكم أنني لم أرشح نفسي لمجلس الشعب رغبة مني وإنما نزولا على رغبة الناس، فلو أعفيتموني من هذا أكون شاكرا..

بأدب جم تحدث الرجل:

- يافندم، وهذا ما يجعل الحزب متمسكا بك، الحزب يستدعيك لخدمة الوطن، هذه رغبة الحزب وقياداته..

ضغط الرجل بذكاء وهو يقول "قياداته"، كأنما يذكره بقيادات الحزب الذين يتحكمون في كل شيء، بل أن بعضهم يشاركه بعض أعماله، وبعضهم لمح له أكثر من مرة بضرورة الانضمام إلى الحزب لضمان استمرار التسهيلات التي تقدم إليهم..

كان على عطية ألا يتمادى أكثر من ذلك، فرسالته وصلت، كما واستلم هو الآخر رسالتهم، لم يتبق له إلا أن يعطي ساعي البريد شيئاً، عليه أن يشعره أنه نجح في مهمته وأنه استطاع بقدراته الفذة أن يقنعه بالموافقة، عليه إذاً أن يمتدح الحزب ويمتدحه في ذات الوقت، استحضر مقولة حمدي غيث في فيلم صلاح الدين الشهير

"صلاح الدين يحسن اختيار سفرائه"، ونظر إلى الرجل مبتسماً، ثم قال:

- الحزب يجيد اختيار مبعوثيه، لقد أقنعتني، رغم أن ذلك سيكلفني غاليا، وسيكون على حساب أعمالي ومشاريعي..

ابتسم الرجل ابتسامة المنتصر، وقال: خدمة الوطن تستحق الكثير..

٥

في مطعم عائم على نيل المحروسة، جلس عطية في مواجهة هايدي، إنه اللقاء الأول لهما خارج الجدران المغلقة. في هذا الجو الذي بدا لوحة إبداعية بعناصرها الحية من سماء صافية ومياه جارية وهواء عليل يمكن لهما أن يتحدثا بحرية.. هكذا أرادت هايدي للقاء، أن تتحدث بحرية وأن تسمع له وتطرح الأسئلة وربما تضع الشروط..

ترك لها المبادأة، فظل صامتا يترقب..

قالت:

- من المؤكد أنك تستغرب جرأتي.

رد بهدوء يناسب الأجواء:

- أبداً يا هانم، أنا سعيد بتلك الجرأة.
- لكني لا أرى عليك شيئا من مظاهر تلك السعادة، أراك صامتا..
- ليس صمتا، فقط، أترك لكم البداية.
- لكني في حاجة إلى أن أسمع منك، حدثني عن نفسك، عن أعمالك، عن ارتباطاتك.. معلوماتي تقول أنك غير مرتبط.. أليس من الغريب أن يظل رجل مثلك دون ارتباط حتى الآن؟!.. أريد أن أسمع لك..

عندها تجرأ عطية واسترسل في الحديث، ثمة أشياء كُتبت في ذاكرته بالحبر السري، لا يمكن أن يفك شفرتها لأحد، فهو لا يستطيع مثلا أن يحدثها عن الكنز وفاطمة، لكن يمكن له أن يحدثها عن أصوله القروية، عن بحيرة قارون التي تركت أثراً في نشأته، عن والده الصياد البسيط، عن أمه وتضحياتها.. يمكن أن يحدثها عن كفاحه، ورحلته الفاشلة إلى ايطاليا، وعن عمله بالمتحف، ثم رحلته مع العمل الخاص، كيف بدأ بمحلٍ صغير لبيع الخردة والمسامير في "السبتية" بالقاهرة إلى أن أصبح أحد أهم رجال الأعمال في مصر. يمكن له أن يحدثها عن سكنه المتواضع في بولاق والذي اشتراه لاحقا وشيد محله عمارة ضخمة وجعل منها مقرا انتخابيا له ومركزا لإدارة بعض أعماله. كان حريصا على أن

يقدم نفسه كرجل عصامي، بني نفسه بنفسه، كان يرى نفسه في ذلك. هو لن يستطيع التهرب من أصوله، لم يولد وفي فمه ملعقة ذهبية كما يقولون، وبالتالي لامجال لأن يقدم نفسه على غير هيئتها فينكشف كذبه، كما أن الحديث عن الرجل العصامي له بريقه، فأسهب كثيرا،وظل يُراوغ ويتجاهل الحديث عن نقطة بعينها، لكنه وجد نفسه في النهاية مضطرا أن يخوض فيها قبل أن تعاود هي وتسأله عنها. تناول الأمر بكلمات مقتضبة مفادها "أن العمل لم يترك له وقتا للارتباط".

كانت تتلقى خطابه بارتياح، تنصت إليه باهتمام، لم تقاطعه ولو لمرة واحدة، ربما تأدبا، أو ربما حرصا على عدم قطع استرساله ورغبة في المزيد.. حين استنفذ ما يريد قوله، اختتم كلامه قائلا:

- هذا تقريبا كل شيء عني.. صَدَّعْتكِ..

قالت مبتسمة:

- أنا سعيدة بمعرفتك. أنت كما ظننت.

عاجلها:

- لعله ظن حسن؟

- أكيد.. ثم واصلت: لا أدري ما الذي تعرفه عني؟ ما يهمني أن تعرفه أنني خضت تجربتي زواج لن أُحمل الآخرين مسؤولية فشلهما. للحظات، غامت عيناها مع ذكريات

بدت مؤلمة قبل أن تسارع وتنفض عنها غبار الماضي وتقول مبتسمة:

- لقد سمعت عنك الكثير، وسمعت لك في لقاءات وأحاديث إعلامية. فتركت انطباعا جيدا لدي.. من الآخر عجبتني.. وأظن أن سيدة في مكانتي وسني تمتلك من الشجاعة أن تبدي إعجابها مباشرة، ومن دون وسطاء، الوسطاء لا جدوى لهم، في تلك الحالات ضررهم أكثر من نفعهم.

أمسك عطية بطرف الحديث قائلا:

- أنا سعيد أن أسمع منكِ هذا الكلام، هذا شرف لي..

شعر أن كلماته الأخيرة لم تكن كافيه، وأن عليه أن يقابل خطوتها بما هو أكبر. امتلك زمام المبادرة قائلا:

- لم أعرف طعم النوم منذ أن رأيتك بالأمس، لم أكن أعتقد في "الحب من أول نظرة"، لكن حالتنا تلك كانت شاهدة على صدق تلك المقولة.

٦

كان الحفل أسطوريا بما تعنيه الكلمة، لم يكن المكان الفخم وحده وراء ذلك، ولا تلك الخدمات المقدمة، ولا هايدي التي بدت

نجمة ساطعة في السماء، ولا حتى عطية الذي بدا شابا عشرينيا، وإنما أيضا للحضور الكبير. لم يتوقع عطية يوما أن يحتفي به كل هذا الحشد من كبار رجالات الدولة ونجوم الفن والرياضة، ، لقد خيل اليه أنه لم يتغيب عن الحفل سوى رأس الدولة، كل الوجوه موجودة، جاؤوا جميعا من أجله، جاؤوا يحتفون به ليلة زفافه على هايدي هانم أبو النجا.. ربما يظل هذا الحفل حديث الناس لفترة طويلة، ربما يظل عالقا في ذهنه مدى الحياة.. راح يجول بعينيه راصِدا الحضور، شعر أنه أمام نقلة نوعية.. وكما في كل مرة، حين يخطو خطوة باتجاه هدفه، يستحضر صورة أبيه منتشيا في رسالة مفادها أنه على الطريق.. زواجه من ابنة المسئول الكبير، وهذا الحضور الكثيف لكبار المسئولين مؤكد خطوة فارقه باتجاه هدفه كما اعتقد..

كان عطية قد رتب لخطواته المقبلة بدقة حين تأكد من جدية الارتباط، لم يهتم لكونها لن تنجب، بإمكانه أن يتغلب على تلك المشكلة ببساطة، زواج سري سيمنحه الأطفال إن قرر ذلك.. لا مستحيل في قاموس مفرداته، الآن تخضع الأشياء له، تتهاوى جدر المناعة، الشواهق تطأطأ رؤوسها عند قدميه، يتضاءل الكبير، يصبح المستحيل ممكنا. انتهى العرس واصطحب العريس عروسه إلى أحد أفخم فنادق القاهرة، ليلة واحدة سيقضياها هناك قبل أن يغادرا إلى فرنسا لقضاء شهر العسل..

ومنذ الليلة الأولى بدت شخصية هايدي القوية، لم يكترث عطيه، كان مثالا للزوج العصري المتفهم، ينفق بسخاء، يعاملها كملكة متوجة، يستحدث طرقا للمغازلة، حتى وصل به الأمر إلى قراءة بعض الكتب ذات الصلة، عبارات وتراكيب لغوية غزلية، فُسح وخروجات، هدايا.. أشعرها أن الدنيا تحت قدميها. انتهى شهر العسل. عاد العروسان إلى القاهرة من جديد، لكن ليس إلى فيلا الدكتور حازم، وكم كان الأمر شاقا عليه، أن يجلس بعيدا عن كريمته، وهو الأمرالذي لم يسمح به في زيجتيها السابقتين، هذه المرة نزل على رغبتهما في الاستقلال والإقامة في فيلا عطية بالسادس من أكتوبر.. عاد عطية إلى فيلته، حيث جناحه الشاهد على مغامراته، لم يكن واثقا في قدرته على وضع حد لتلك المغامرات لكنه كان حريصا على ألا يعود اليها، مكانة زوجته، وحرصه على استمرارية تلك العلاقة، والدروس المستفادة من زواجها السابق أمور جعلته أكثر عزما على ألا يعود لتلك المغامرات.. لكنه في قرارة نفسه كان يخطط لمغامرة من نوع خاص، مغامرة سرية، ولمرة واحده، لم يكن يعلم توقيتها تحديدا ولا حتى طرفها الآخر، كل ما كان يعلمه أنه سيخوض تلك التجربة حين يحصل على ثقتهم ويقرر أن الوقت صار ملائما للبحث عن ذرية تخلد اسمه وترث كنوزه ومكانته.

٧

مشهد تكرر مرات عدة، يتلقى عطية اتصالاً من طه، يطالبه بلقاء ضروري في نفس المكان الذي اعتادا الالتقاء فيه، بات عطية يحفظ عن ظهر قلب مغزى لفظ" ضروري"، إنها ولا ريب خدمة جديدة.. اعتاد طه أن يطلب منه في تلك اللقاءات خدمات تخص أفراداً من التنظيم، هنالك قضايا لبعض أفرِاد التنظيم لا تمس أمن الدولة، أو بالأحرى أمن النظام، حيث لا مسافة باتت تذكر بين أمن الدولة وأمن النظام، حتى تلك القضايا السياسية المرتبطة بأفراد التنظيم والتي كانت الدولة تغض الطرف عنها ليسير المركب ولا يفتعل التنظيم مناكفات..كان التنظيم قادراً على الحشد في أي وقت، كان يستغل بعض المناسبات، لاسيما تلك المتعلقة بالمقدسات الفلسطينية، في دغدغة مشاعر الجماهير، كان النظام يعلم ذلك جيداً، ثمة صفقات كانت تتم بين التنظيم والدولة بشكل غير مباشرٍ، يتوقف التنظيم عن إثارة البلبلة والتهييج مقابل بعض الخدماتِ التي يقدمها الوسطاء من أمثال عطيه، أو عدم التضييق عليهم في أعمالهم الاقتصادية وغض الطرف عن لقاءاتهم

التنظيمية أو إثارة قانونية ومشروعية وجودهم كتنظيم له رأس وقيادة في قلب العاصمة، حتى استيلائهم على النقابات وغض الدولة الطرف عنها كان يخضع لصفقات غير مباشرة..

كان طه يقصد عطية في خدمات ممكنه، وكان عطية يحفظ الجميل لـ طه شخصياً وللتنظيم، كان يعلم أن دعم التنظيم له ساهم في وصوله إلى البرلمان لاسيما أنه تقدم كمرشح مستقل، بعيداً عن حزب الحكومة، كانت الخدمات التي يقدمها لطه وللتنظيم والعشم في مزيد منها سبباً في دعم التنظيم له، كانت صفقات التنظيم مع الدولة تسمح بمنافسة محدودة على بعض مقاعد مجلس الشعب وكان التنظيم يلتف عليها بدعم بعض المستقلين كما فعل مع عطيه ، كما أنه لم ينسَ لـ طه ما فعله معه منذ سنوات، ففي الوقت الذي كان يضمر له شراً بمجرد وضع يده على الكنز، لم يطلب طه المزيد من المال وإنما اكتفى بثلث الثلث المتفق عليه رغم أن تصريف الكنوز تم من خلاله، صحيح أن عطية أعطاه مبلغاً آخر نظير ذلك، وصحيح أنه يعلم أن التنظيم ربما استفاد من تلك العملية، إلا أنه يعلم أيضا أنه كان من الصعب عليه أن يُسوق تلك الكنوز بنفسه، ظل عطية يحفظ له هذا الجميل، ويحفظ لمشايخ التنظيم وقفتهم في وجه تلك الهبات التي تستهدفه من آن لآخر، ليتصدى لها شيوخ ملؤوا السمع والأبصار عبر الشاشات ويكسوه وأنشطته عباءة الدين.. إلا أن وضعا كهذا

يستحيل أن يستمر مع تلك المكانة التي وصل اليها فكان لزاماً عليه أن يسعى في وضع حدٍ لتلك العلاقة..

٨

وقفت نجلاء أمامه، مذهولة تتلقى التعنيف، إنها ليست المرة الأولي، عنفها من قبل مرات عدة، لكنها المرة الأعنف، الأغرب أنها تأتي قبيل أيام من موعد ارتباطهما.. تأتي بعد فترة من حبال الود التي ألقى بها اليها.. فجأة ومن دون سابق إنذار، أصبح مهتماً بها، يطري على أناقتها، نحافتها، وجهها القمري، عينيها الواسعتين، شعرها الحريري الفاحم المنسدل بوقار على كتفيها. يطيل النظر إلى صدرها البارز، وساقيها المشدودتين.. سنوات ثلاثة هي مدة عملها كمديرة لمكتبه، لم تسمع منه كلمة إطراء واحدة خارج نطاق العمل. خبراتها السابقة في أماكن أخرى تقول أن أمثالها هدف دائم لتحرش رب العمل، غير أنها لم تجده كذلك. ربما أنها الهيبة التي يغلف بها نفسه، أو ربما أنه ـ كالبعض ـ يمتنع عن تلك الأعمال في الدائرة المحيطة بالعمل طلبا للبركة، أو ربما وربما.. غير أن الأكيد أنها لم تسمع منه كلمة اطراء واحدة خارج نطاق العمل، ما الجديد إذا؟ سؤال ظل يداهمها بضراوة لأسابيع عدة حتى خرَجت معه مرة أخرى، لم يكن خروج عمل.. كان

الجوهادئا، والمكان مكشوفا، السماء صافية، الإضاءة خافتة تنعكس على صفحة النيل، نسمة صيفية تدغدغ الوجوه وتداعب الأشجار، الموسيقى تُطرب الآذان.. جو أشبه بالخيال، وما سمعته منه كان أكبر من الخيال.. كيف لها أن تقبل الزواج منه وهو من هو؟ كيف توافق على الارتباط به وهي تعلم من هي زوجته وأسرتها؟.. لقد فسرت اهتمامه وتلك الخروجات الأخيرة على أنها تحرش معتاد من رب عملٍ لسكرتيرته، لم يجل بخاطرها أن يكون الارتباط هو الهدف، وما الدافع؟ وهل يأتي الحب هكذا فجأة؟. طال صمتها وهو يتعجل الإجابة.. هربت من ذلك الحصار الذي أطبق عليها إلى مهلة صغيرة طلبتها.. لم يمنحها وقتا طويلا وإنما سألها فور وصوله إلى العمل صبيحة اليوم التالي. حدثته بمخاوفها، حدثها أن الأمر سيظل سرياً. اتفقا على الزواج العرفي. طلبت مهلة، أيام فقط لتستعد، أيام فقط تفصلها عن الارتباط به، لكنها فوجئت بهذا التعنيف المفرط، لا لشيء إلا لأنها حولت اليه مكالمة طه، صحيح أنه كان قد أكد عليها أن تُذْكِر وجوده وتحول بينه وبين اتصالاته، لكنها لم تكن تعلم أنه طه، لقد خدعها. اتصلت امرأة وانتحلت صفة نائبة "زميلة" في البرلمان، لم تكن تعلم أنها حيلة من طه للتحدث إليه بعد أن أيقن أنه يتهرب منه.. هدأ عطية قليلا وراح يبرر لها سبب حدته ويلطف الأجواء لعروس سيدخل بها بعد أيام.

٩

يا له من زحام! تشبه ذاكرته القاهرة في زحامها، وهو يتملص من زحام الشوارع في طريقه للقاء طه، تملصت ريري من كراكيب ذكرياته، لا يدري وقتها لماذا قفزت إلى ذهنه رغم مرور سنوات عدة على آخر لقاء جمعهما؟ لعلها الأوليات، ألم تكن صاحبة أول حضن؟ أليست صاحبة أول مضاجعة؟ أو قد يكون السبب هو تشابه تلك الليلة مع الليلة الأخيرة التي قرر فيها أن يقطع علاقته بها، يومها التقيا كالعادة في فيلته بالسادس من أكتوبر، تلك الفيلا التي شيدها في خياله قبل أن تصبح واقعا، كل ما مرق في خياله نفذه على الأرض، أسوار مرتفعة لمزيد من التأمين، يقف على بواباتها الضخمة أفراد حراسة أشداء، حوش الفيلا لوحة فنية، نجيلة مستوية تغطي معظم الساحة التي يتوسطها حمام سباحة صمم بشكل فني في مواجهة مدخل الفيلا الرئيسي، وعلى مقربة منه بعض الكراسي صُوت بشكل بديع وشمسية كبيرة مثبتة، تخللت الساحة مسارات للسيارات والمشاة، بينما خُصصت غرف للخدم والعاملين بعيدا عن المدخل الرئيسي.. طابق الفيلا الأرضي خُصص للاستقبال ويحوي إلى جانب مَكْتبِه الفخم، قاعة استقبالٍ كبيرة زينت بمجسمات لتماثيل فرعونية، وغرفاً للضيافة، ومطبخا يعج بالأجهزة والأدوات المختلفة، في حين خصص الدور العلوي

للنوم.. غرف عديدة، مستقلة، بمساحات وديكورات مختلفة، أشبه بأجنحة فندقية، كل منها لها حمامها الخاص..غرف لا تفتح إلا للتهوية والنظافة، باستثناء غرفته الرئيسية أو بالأحرى جناحه الخاص الذي يستخدمه في النوم، والذي يستقبل فيه من حين لآخر بعض الجميلات.. تعرفه ريري جيدا، تعرف ذلك الجناح، لطالما استقبلها فيه، كان آخرها في تلك الليلة.. ليلتها كان بارداً كعادته في لقاءاتهما الأخيرة، كانت تشعر ببرودته تلك، آثرت الصمت، كانت تشعر أنهما ربما على شفا الفراق.. لا تدري لماذا لم ترتبط به مبكرا! عاشت معه سنوات فقره ولم تطالبه بالزواج. ربما تعلق الأمر بظروفه المادية أو ظنا منها أنه قد يعرقل مسيرتها. وقتها اكتفت بتلك العلاقة. حين تبدلت الظروف طالبته مراراً بالزواج، كان يتملص بحجج شتى، كان يقول "الزواج يدمر الحب". تحت ضغطها قالها صريحة" إن قررت الزواج فالأكيد لن يكون منك"، أريد زواجا يرفعني. حينها فهمت، ولم تعد تحدثه عن الزواج مرة أخرى. اكتفت بلقاءاتهما الباردة على قلتها، وعلى فترات متباعدة، لا تدري لماذا استمرت في علاقة كتلك وبهذا الشكل!.. ليلتها ألقت برأسها على صدره، لم تعبث كعادتها بشعيرات صدره النافرات، كانت تشعر أنها ثقيلة، هو ايضا لم ينظر إلى منحياتها، لقد اختفت معالمها، وازداد وزنها، ربما توقفها عن الرقص دفع بجسدها إلى تلك الزيادة. بعد أن حققت حلمها واشترت أحد

أكبر كباريهات البلد، اكتفت فقط بالإدارة، لم تعد في حاجة إلى الرقص بعد أن جلبت الروسيات وغيرهن من الراقصات، ضاق الوقت بمشاغلها، حتى عطية لم يعد يمثل لها الكثير، لم يعد سوى ظهرٍ تستند اليه في بعض الأزمات، حتى تلك أصبح هنالك من يقومٍ بها.. كل هذا سهل مأموريته حين أخبرها أن لقاءهما هذا هو الأخير، لم تتعجب كثيراً، فقد هيأت نفسها مسبقا لهذا الأمر.. البعض تصدمه التغيرات والأحداث الكبار لأنه تعامى عن إرهاصاتها، عندما نتعامي عن التغيرات البسيطة التي تحدث حولنا، نتفاجأ بالتغيرات والأحداث الكبار.. هي لم تكن كذلك، كانت تشعر أنه يبتعد، كانت تشعر باتساع الهوة، ببرودة اللقاء.. لم تكن تتعامى عما ينشر ويتداول عن علاقته بـ "هايدي" ابنة المسئول الكبير، يشاع أنهما سيتزوجان قريبا.. حين أخبرها بحتمية الانفصال، أشاحت بوجهها عنه، لم تكن في حاجة لسماع تبريراته التي راح يسوقها، تعلم جيدا أنه لايريد أن يؤتى من قبلها لاسيما بعد أن دخل معترك السياسة بمعاركها التي لا تستثني أسحلة، ويختلط فيها العام بالخاص، والمباح بالمحرم. قطعت استرساله بشيء من الحدة:

- وفر كلامك.. ووفر عليك الإحراج.. لست في حاجة لتقديم مبررات، كنت أشعر بذلك، بل كنت انتظره، فقط لم أكن أعلم التوقيت.. كما أن علاقتك بـ"هايدي"

حديث الناس، أليست هذه ابنة حازم أبو النجا؟ عادت بالذاكرة سنوات وهي تتساءل: أتذكر حازم أبو النجا ياعطيه؟ ابتلعت ريقها وبصوت يصارع البكاء أردفت: لقد أتقنت لعبة السياسة فأحسنت الاختيار، الإختيار الذي يحقق لك أقصى منفعة ممكنة. يقولون أن زواجكما بات وشيكا، وأن لها طفلة من زوجها الثاني. هزمتها دمعة فشلت في وأدها من منبعها وهي تقول: على كل حال، ستظل أجمل حاجة حدثت لي في هذه الدنيا. لا يدري وقتها لماذا لم يخضع لقلبه الذي رق لحالها ويأخذ بخاطرها ولو بكلمة واحدة ؟ فقط راح يرقبها وهي تنسحب في هدوء، وتغادر..

ومنذ ذلك الحين لم يلتقيا، كل ما سمعه أنها ارتبطت بشاب يصغرها بسنوات، يرافقها في كل مكان..

١٠

لا شيء يعلو فوق المصالح، هي من تحركُ الأشخاص، هي من تحرك الأحزاب والتنظيمات، هي من تحرك الدول والمنظمات.. هي من تجعل من العدو حبيباً ومن الحبيب عدوا، هي المصالح لا غيرها.. المصالح هي من جمعت بين عطية وطه، منذ تعرف عطية

عليه عَبْر "ريري" كانت المصالح هي العنوان الأبرز في تلك العلاقة، عَبر طه أراد عطية أن يهاجر إلى الضفة الأخرى من المتوسط، وبمساعدته تم الحفُر وصولاً إلى الكنز، ومن خلاله تم تصريف الكنز. بل والأهم من كل ذلك هو شرعنة تلك الأموال، ما كان بمقدور عطية أن يظهر فجأة بكل تلك الأموال، ظهور شخصية مالية فجأة إلى مقدمة المشهد أمر لافت، قالها له طه وهو يحاول تلطيف الأجواء عقب وصفه له بالغباء، خرجت العبارة من طه لا إراديا، حين قال له "أنت غبي" اتسعت عينا عطية، واجتاحته عاصفة من الغضب، تدارك طه الأمر سريعا، وبدا خائفا عليه، حريصا على مصالحه، راح يشرح له: ألم تسمع عن غسيل الأموال؟ في الحالات المشابهة لحالتك تلك، لا يمكن لك الظهور فجأة بكل تلك الأموال، حين تُسأل "من أين لك هذا" بماذا تجيب؟ بدا الكلام مقنعا لعطية، هدأ قليلا وراح ينصت إليه باهتمام وهو يقول: سقوطك يا عطية سقوط لنا، نحن شريكان، نحن حريصون عليك، ثق بنا يا عطية، لدينا خبرات كبيرة في هذا الأمر، غسيل الأموال أمر معقد يحتاج إلى تمويه، يحتاج إلى شركات وهمية، ودورة تحويلات معقدة لتلك الأموال حتى تُشرعَن وتصب في قنوات مشروعة، عندها يمكن لك أن تضع أصبعك في عين التخين كما يقولون.. اقتنع وقتها عطية، واستغرق الأمر سنوات عدة، عدة سنوات كانت كافيه ليظهر عطية على الساحة كأحد أهم رجال

الأعمال، إعلانات شركاته ومصانعه في كل مكان، يتغنى بها مشاهير الفن والرياضة، ما كان ذلك ليتم دون دعم من طه ومن يقف خلفه. تدريجيا، تآكلت المنافع التي يحصل عليها عطية من طه، ولم يعد لديه ما يقدمه لعطية سوى ذلك الرداء الديني الذي يكسوه مشايخ التنظيم له ولأنشطته، وحتى تلك المصلحة باتت عبئاً عليه، وأصبح يقوم بها آخرون، ومع ذلك ظل طه يحصل على المنافع التي تتزايد بمرور الوقت، تتزايد مع كل مرتبةٍ يصعد إليها عطية، حتى وصل إلى تلك النقطة التي يجب أن يقطع فيها تلك العلاقة. وقد وجد عطية أن التجاهل والتهرب لم يجديا نفعا. فقالها صريحة له حين التقاه، غير أن طه لم يستسغ ذلك الحديث، ذكره بفضله وفضل التنظيم عليه، ذَكَرعطية مذكراً إياه بما جَنوه من ورائه، لم يذكره بالأموال فقط، بل راح أيضا يذكره بخدماته له وللتنظيم، راح يذكره بقضايا عديدة ما كانت لتنتهي لصالحهم لولا تدخله، لم يجد طه غير التهديدِ المبطن، فراح يستعيد عليه أحداثا ظن عطية أن الزمن طواها، ذكره بفاطمة والشيخ نبيل وريري .. ورغم أنه نكأ جرحاً، غير أن عطية تماسك وبدا قوياً، ورد بتهديد أقوى مدفوعاً بمكانته الحالية قائلا:

- أنت تعلم جيداً ما يمكنني فْعلِهُ، من الأفضل لكم عدم استدعاء تلك الأمور.. ثم سحب ناعما:

- يجب أن تعي أن استمرار تلك العلاقة ليس في صالحكم مثلما هو في غير صالحي، بعد أن أصبحت الآن في مقدمة الصفوف صرت الآن محسوباً على الدولة، وأي لقاءٍ يجمعني بكم يحرج الدولة.. واصل حديثه: انت تعلم أن ثمة مستوى معين مسموح لكم بالتعامل معه، فوق ذلك لا في مصلحتي ولا مصلحتكم، الدولة لن تسمح.. آمل أن تكون قد فهمت.. ثم إنكم لن تَعلَموا، مؤكد أنكم تملكون البدائل، لديكم عشرات من أمثال عطية لكن في مستويات دنيا.. لم يبدو أن طه قد اقتنع، بل أن وجهه بدا كقنبلة موقوتة على وشك أن تنفجر غضبا، قَطْع تلك العلاقة لا يمثل خسارة للتنظيم الذي من المؤكد أنه يمتلك البدائل بقدر ما هو خسارة لطه نفسه، لقد كان يتباهى بتلك العلاقة أمام التنظيم، ألم يكن هو مفتاح تلك العلاقة، ألم يكن ذلك الوسيط، ألم يكن اسمه يذكر مع كل منفعةٍ تقدم للتنظيم أو أحد منسوبيه عَبْر عطيه؟.

لكن عطية لم يهتم، انصرف وهو يؤكد عليه بعدم الاتصال به مجدداً وإلا سيرون الوجه الآخر.. عندها أطلق طه قنبلته التي هوت كالصاعقة على عطية فتسمر مكانه من هول الصدمة..

١١

أمر غريب ذلك الذي حدث صبيحة ذلك اليوم، حين ذهب عطية إلى مكتبه كعادته، لم تكن نجلاء على مكتبها ليلقي عليها بصباحه المعتاد، ويدلف مشرئب الرأس إلى مكتبه، يستقر على مقعده الجلدي الوثير ذي العجلات، تطلب له قهوته الصباحية وتقدم له جدول المواعيد والارتباطات اليومي.. الأغرب أنها لا ترد على الهاتف، لم تتأخر يوما عن عملها دون إذن مسبق. تملكته الحيرة، أتختفي قبيل عقد قرانها بأيام! أهربت ِ هي؟ أم أنه مجرد تعبير عن الرفض؟ ألم تُبْدِ موافقتها؟ ما الذي يمكن أن يكون قد حدث لها؟.. أسئلة عديدة هاجمته، وكعادته حين يعجز عن إيجاد إجابات يتوقف عن التفكير في الأمر ولو مؤقتا. سؤال واحد ظل يلازمه عن سر قلقه لتغيبها: أحب هو أم أنه الاعتياد ومصلحة العمل؟ يرد على نفسه سريعا: بالطبع لا، ليس حبا، صحيح أنها جميلة، مبهرة، لكنه ليس العاشق الولهان. لقد أراد أن يتزوجها من أجل أن تنجب له أولاداً يخلدون اسمه ويرثون ثروته وسلطانه. كان يريد لسلسلة الأسياد التي بدأها أن تستمر. ستمحو ذكراه بمجرد أن يوارى جسده التراب، حتى شركاته سيأتي يوما من يزيل اسمه ويستبدله بآخر. قارون لم يُخلد بكنوزه رغم ضخامتها، وإنما خلده القرآن حين ذكر قصته، ومن سيقص قصته؟ من سيتحاكى به غير ولد يرث كل تلك الأموال والسيادة؟. لا أمل له في ولد من هايدي، ولا أمل في زواج علني منعا للصدام معها ووالدها.. نَحَّى عطية غياب نجلاء

جانبا، وأشغلته أعماله عنها إلى حين. عندما فرغ، هاتفها قبل أن يغادر، غير أن أحدا لم يجبه.. حين عاد إلى فيلته، استقبلته هايدي بشكل لم يألفه طوال ثلاث سنوات هي مدة زواجهما. ما إن جلسا سويا على سفرة الطعام حتى سألته على غير العادة عن أخبار الشغل. سؤال غريب رد عليه من تحت ضرسه "الحمد لله.. تمام"، لكن السؤال التالي كان مفاجئا حين باغتته:

- وما أخبار نجلاء؟

توقف الطعام في حلقه، لابد أن هناك رابطا بين هذا السؤال وتغيبها.. استعاد توازنه قائلا:

- تغيبت اليوم.

بلؤم بدا من نظراتها، سألته:

- أليس من الواجب أن تهاتفها لتطمئن عليها؟

- غدا أفعل.

- ولم ليس الآن؟

استفزته أسئلتها فاحتد صوته عليها لأول مرة قائلا:

- ماذا بك اليوم؟! وما سر اهتمامك المفاجئ بعملي وبنجلاء؟.. جديد ذلك الاهتمام!

بنبرة تهديد قالت:

- نجلاء لن تعود للعمل، لن تراها بعد اليوم.

- لماذا؟

- أنت تعلم ولا داعي للخوض في الأمر، سأعتبر الأمر خطأ عابرا لن يتكرر.. وواصلت: مؤكد لن يتكرر، لأنه لو حدث مرة أخرى سيكون هنالك ردة فعل أخرى، أكيد انت فاهم. لا أنا ولا بابا يمكن أن نسمح بتلك المهزلة. تلقى الرسالة في صمت، وراح يلوك الطعام بعنف مفرط.

١٢

أشبه بالصدمة، ذلك الذي ينتج عن التقاء نقيضين.. يقولون أن كل التقابين موجب وسالب يُنْتِج طاقة، لكنهم لم يقولوا أن هذا الالتقاء يحدث صدمة أولية، يحدث صعقاً يفقد العقل. لحظيا. قدرته على تأدية مهامه.. كان وقع الخبر على عطية صاعقا، صاحبة أحد أكبر كباريهات البلد تتزوج من طه عضو التنظيم إياه ذو المرجعية الإسلامية.. ألقى طه بتلك القنبلة على مسامعه بعد أن استنفذ خياراته للإبقاء على صلاتهما معا، تسمر عطية مكانه للحظات، ثم عاد واستدار باتجاهه، تحرك بضع خطوات وراح يستنطقه، لربما لم يسمعه جيدا، سأله:

- ماذا تقول؟

- قلت ما سمعته.. تزوجنا أنا وريري.

- كيف؟

ابتسم طه ابتسامة المنتصر، لقد نجح في إجبار عطية على العودة من جديد، ولو لبضع خطوات، عودته تلك الخطوات تعني إمكانية تراجعه عما هو أكبر.. أجابه مبتسما:

- مثل كل الناس.. مأذون "شرعي"، وشهود، وعقد قرآن.. تدارك، لكن ليس على غرار زواجك بفاطمة..

كأنما أراد أن يذكره بفاطمة وذلك الزواج الوهمي..كأنما أراد ان يذكره بابنه الذي ذبحه.. قصت ريري على طه قصة ذلك الرضيع، تلك القصة التي تجاهل عطية ذكرها في لحظة التطهر التي تحدث فيها عن نفسه، وظلت حبيسة صدره إلى أن باَح بها يوما إلى ريري. لم يتوقع عطية أن تبوح بها، وكيف تبوح بها وهي من تعشقه؟ لكنه غضب النساء! حين تهمل النساء لا تنتظر منهن عقلا، حين تهملهن يغيب المنطق عن تصرفاتهن، حين تهملهن لا تسأل عما يجب وما لا يجب.. قطع عطية علاقته بـ"ريري" من أجل أخرى، قطع علاقته بها وتنكر لخدماتها: آوته فقيرا، وفرت له عملا، ساعدته على السفر حين قرر ذلك، تحملت نفقات الوصول إلى الكنز رغم ما صاحبه من مخاطرة، ألم يكن من المحتمل أن يكون الكنز وهماً فتفقد كل أموالها؟ ورغم ذلك خاطرت وأنفقت بل وغامرت بوظيفتها حين طلبت أجازة شهرا تغيبت بعده أياما. كانت تنتظر تقديراً أكبر، تقديرا تعتقد أنها تستحقه، كانت

تمني نفسها بالزواج منه. لكنه حين أراد الزواج، ارتبط بأخرى، ارتبط بمن قال أنها سترتقي به، ارتبط بابنة أحد المسئولين الكبار.. ورغم أن الأمر لم يكن مفاجئا، إلا أن الأمر شكل لها إهانة كبرى، وخلف جرحاً عميقا، وما أصعب أن تهين امرأة، ما أقسى من جَرح امرأة!.. شهور قليلة وارتبطت بشاب صغير، ربما كان الأمر ردة فعل متعجلة، لذا لم تنجح التجربة. لم يملأ الفراغ الذي خلفه عطيه. في ذلك الوقت تقدم طه ليشغَل ذلك الفراغ. كان الأمر مفاجئا، وَ...غريبا. الحالة التي كانت عليها دفعتها للقبول سريعا، لم تمنح نفسها مزيدا من الوقت للتفكير.. طه يعرف عنها كل شيء، وهي تعرف عنه ما تظن أنه كل شيء، تعرف أنه ينتمي لأحد التنظيمات الإسلامية، حدثها عطية بذلك مرات، ورغم ذلك لم تستغرب من ارتياده الملاهي الليلية، هي تعي أنها مهام وأدوار، وأن الملهى هو إحدى ساحات تلك المهام. لم تشغل نفسها كثيراً بتلك التفاصيل، كما لم تشغل نفسها أيضا في تفسير خطوته تلك، ودون عناء البحث أقنعت نفسها أنه ربما أراد أن ينتشلها من هذا الوحل، حدث ذلك كثيرا، كثير من الفنانات ارتدين الحجاب، بعضهن ترك الفن وأخريات ظللن يمتهنه محجبات محتشمات، راقت لها الفكرة، ارتبطت بطه وظلت تدير أحد أكبر ملاهي القاهرة الليلية، وظل طه زبونا دائما على الملهى، يمارس ما كان يمارسه من قبل، لم يتدخل مباشرة في إدارتها للملهى، كان

يقدم لها النصائح حين تطلبها، فازدادت ثقة به، وتقبلت فكرة الحجاب التي نصحها بها، في البداية ترددت.. انت لا ترتادين الصالة، تديرينها من مكتبك، الحجاب لن يشكل عائقا، هكذا أقنعها أوهي كانت مهيأة لأن تقتنع بعد أن جرى بها قطار العمر..

موافقة ريري على هذا الارتباط ربما بررته الحالة التي كانت عليها، ورغبتها في الالتجاء إلى الله بعد أن تسربت السنوات من بين يديها، لكن المؤكد أن الأمر بالنسبة لطه كان مختلفا، لم يكن الهدف واضحا من وراء هذا الارتباط، قطعاً هو ليس طمعا في أموال ريري، فالمنافع التي يجنيها أكثر أهمية من تلك الأموال، ربما تعلق الأمر بتأمين تلك المنافع بعد أن أصبح الملهى ملعباً رئيسيا له وللتنظيم.. حين اشتكى إليها عطية، حذرته منه حيث لا عزيز لديه وقصت عليه ما أغفله في اعترافاته، قصت عليه كيف ذبح طفله المريض دون أن يهتز له جفن..

تلقف عطية رسالة التهديد المبطنة.. ورغم أن طه حاول أن يوهم عطية أنه أراد أن ينتشلها من هذا الوسط وأنها ـ بفضل الله ـ ارتدت الحجاب، وحجت بيت الله، لكن عطية يعلم جيدا أن الدين هو آخر ما يشغل بال تلك الجماعات.. نظر عطية إلى طه نظرة غاضبة متوعدة، ثم انسحب دون أن ينبس ببنت شفة..

١٣

نشرت الصحف اليوم خبر مقتل صاحبة ملهي ليلي شهيرة وإصابة زوجها إصابات خطيرة، التحريات الأولية تشير إلى شخصين كانا يقودان دراجة نارية، أطلقا عليهما النار وهما عائدان ليلا من الكباريه، الأمر الذي أدى إلى انقلاب السيارة، في حين لاذ الجناة بالفرار، وما تزال الجهات المختصة تبحث عنهما.. الخبر تناقلته معظم وسائل الإعلام.. نَحَّى عطية الجريدة جانبا، امتص نفسا عميقاً من سيجاره، أجهزعلى قهوته الصباحية، ثم غادر.. كان عطية قد تردد في زيارة طه في المستشفى، قبل أن يعود ويقرر زيارته، زيارة كتلك لن تنال منه، على النقيض تماما، إنها ستُحسب له، علاقته بـ"طه" ما تزال ماثلة في الأذهان، كما أنها ستبعد عنه كل شبهة. حين وصل عطية إلى المشفى كانت عقارب ساعة الاستقبال تشير إلى العاشرة صباحا، لم يكن هنالك صعوبة في الوصول إلى طه، وسحق مواعيد الزيارة، دائما هنالك من هو في الخدمة، دائما هنالك من يتطوع ويعرض خدماته مقابل حفنة جنيهات تُدس خفية في يده.. حين دخل على طه، كان مكبلاً بالضمائد والخراطيم، تحاصره الأجهزة الطبية، ورغم ذلك بدا واعيا، هذا ما وشت به نظراته التي تشير إلى عطية بالاتهام، لم يكن عطية في حاجة لنفي تلك التهمة، لقد أراد أن يؤكدها ولو بشكل غير

صريح، أراد أن يخبره أنه ليس ببعيد عنه، وإن نجا هذه المرة فلن ينجو في المرات القادمة، لكن طه فاجأه بضحكة مبتورة تسربت عنوة من بين ركام الأربطة. ارتبك عطية حين تطورت تلك الضحكة إلى ضحكات ثم إلى هستريا، كيف لجسد مكبل أن يُخرج كل تلك الضحكات؟! وعلام يضحك؟.. واصل طه مفاجآته وبدا كمن يصفعه صفعة مباغتة على وجهه حين قال له "أنت غبي".. وقبل أن يفيق عطية من ذهوله عاجله طه واسترسل في الكلام:

- قلتها لك من قبل "أنت غبي".. حكومتك التي تخشاها، هي من تُؤمن وجودنا، اجتماعاتنا تتم عَلَى مَرْأًى وَمَسْمَعٍ منها، أنشطتنُا الاقتصادية، مكاتبُ نا، كوادُرفي الجامعات، في النقابات، في كل مؤسساتِ الدولة.. دولتك هي من تحمينا، لو أرادت التخلص منا لفعلت، لكنها تستفيد منا ربما أكثر مما نستفيد منها، لَا يَغُرَّنَّكَ تلك الهبَّات التي تثور فيها من حين لآخر.. التضييق، الفصل من العمل، الإغلاق والمصادرات، الاعتقالات، بل وإعدام البعض، ما هي إلا رسائل، تختلف حدتها من وقت لآخر ومن مرحلة لأخرى، لكنها كلها تبقى دون أن تمس جسد التنظيم، وحتى إن مس الجسد جرح ضمده نظام لاحق..

صمت طه قليلا كأنما يلملم قواه المتشظية، ثم واصل:

- نحن أيضا نبادلهم تلك الرسائل، نشعرهم أننا موجودون، نستعرض قوانا من حين لآخر، نتظاهر في مناسبات، يرتفع صوتنا عاليا مع قضايا وأحداث.. هي رسائل متبادلة ألفناها، لكنها تغيب على الجدد من أمثالك. الجدد من أمثالك لا يدرون أنهم مثلُنا، كارت يستخدم عند الحاجة، الفرق بيننا، أنهم لا يلقُون بنا إلى أقرب مقلب نفايات كما يفعلون معكم، لإنهم ببساطة يستطيعون استنساخ الآف منكم، لكن.. كيف لهم بتنظيم مثلنا؟!..

كان غريبا أن يصغي عطية باهتمام لحديث طه المطول، الأغرب ما سمعه منه وهو يتعرى ويعري التنظيم أمامه ويقول:

- مصدر شرعية النظم هي الشعوب، ولغياب الثقة بين الشعوب وحكامها تلجأ النظم إلى من يتحدث في الدين. الناس تهرع إلى الدين ومن يمثله لاسيما في حالات الفقر والمرض عل الله يفرج الكروب، ولن يجد أي نظام أفضل منا، حيث قواعدنا المنتشرة في طول البلاد وعرضها. نحن نستطيع تسويق النظام. بالإمكان أن نقول للناس إن الفقر والمرض ابتلاء من الله، ونقرأ عليهم "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين.." وبالإمكان أن نقول لهم إن الفقر والمرض هي لسوء وفساد الحكومة. نستطيع أن نقنعهم أن القروض

والفوائد حلال في ظل تقدم نظم المعلومات المحاسبية والاقتصادية أو كخيار المضطر، وبالإمكان أن نعبأهم ضد النظام ونقنعهم أن القروض والفوائد حرام، رباً صريح، وأن الدولة تطعمكم بالحرام.. الدولة تعي جيدا قدرنا، نتبادل معها الرسائل على اختلاف حدتها، لكن لا غنى لأحدنا عن الآخر. فالحاَكم إذاً، كصاحب المنصب من أمثالك في حاجة لمن يلمعه، لمن يسوقه لدى شعبٍ لا يثق به. بالتأكيد لازلت تذكر عندما أردت أن تتلمع اعتمدت علينا، وكذا يفعل الآخرون.

الفصل الثالث

أحرار..

لم نولد وحريتنا ِملكٌ لنا فحسب، بل نحن مكلَّفون أيضاً باللّدفاع عنها.

إتيان دولابويسي

1

حسين ابراهيم البنداري، ٢٧ سنة، مواليد الفيوم، والده متوفي، يعيش مع أمه التي تعمل في مكتبة صغيرة لهم أسفل شقتهم في حي الوايلي، وسيم، مستقيم، جاد، الأول دائما على دفعته، يعمل الآن مدرساً في كلية الآداب جامعة عين شمس. والأهم من كل ذلك أنه أعزبَ و.. غير مرتبط، وأن شخصية نسائية جميلة منشغلة بأخباره وتتحرى عنه.. كانت سوزي غارقة في الضحك حين سألتها "ماجي": أي معومات أخرى يافندم؟ نحن في الخدمة.

– من أين لك بكل تلك المعلومات؟ سألتها سوزي.

ماجي . مستنكرة . وهي تعدل ياقة بلوزتها:

– وهل يسأل مِثلي هذا السؤال؟ أنا ماجي محمود البنهاوي! "شارلوك هولمز" الدفعة.. لكن دعي عنك هذا الآن وأجيبيني عن سر اهتمامك بالرجل.. أشتم رائحة أميزها جيدا يقال لها "حب".

ضحكت سوزي ضحكة مجتزأة وهي تقول:

– الله يسامحك.. وهل يخطر ببالك أن سوزي ابنة الراحل أحمد صبري وحفيدة الدكتور حازم أبو النجا، يمكن أن تحب شخصاً مثل هذا؟

– وما المانع؟.. شاب، وسيم، متفوق، له مستقبل..

قاطعتها سوزي:

- ومعقد..

ضحكت "ماجي" وهي تقول:

- للحقيقة، الرجل هو الوحيد الذي كَسَر شوكتك ومرغ أنفك بالتراب؛ أكثر من مرة يحرجك أمام الجميع ولا تستطيعين له ردا. ما زلت أذكر هيئتك التي كنت عليها وانت تتصببين عرقا يوم عنفك لاستخدامك المحمول وقت المحاضرة. ويوم أن دخلتِ قاعة المحاضرات متأخرة عنه، حين أعطاكِ درساً في الالتزام وأهمية الوقت.. إنه الوحيد الذي أجبرك على التواجد داخل القاعة قبل أن يدخل. لم يستطع أحد أن يفعل بك ما فعله. يبدو أنه لا يعرف من أنت وابنة من تكونين؟

"صبراً، سترين ماذا أفعل بهذا الجربوع" قالتها سوزي بغلٍ مفرط. -

استنهضتها ماجي وهي تقف وتقول:

- المحاضرة باتت وشيكة، أسرعي، أخشى أن نتأخر فيعاقبنا..

كانتا آخر من دلف إلى القاعة قبل أن يدخل حسين ابراهيم البنداري بخطى واثقة. كان حَسِن الهندام، يرتدي بدلة سوداء، وقميصا ناصع البياض تزينه ربطة عنق حمراء. ألقى تحيته المعتادة ولم

ينتظر ردا.. وبمجرد أن استدار لبدء المحاضرة حتى سمع ضحكة ساخرة.. التفت إلى الطلبة، لم يكن في حاجة إلى جهد ليعرف أن سوزي مصدر الضحكات، سألها بحدة:

- تُري ماذا يضُحكك؟ أخبرينا لنضحك معك؟

كان ردها صاعقاً حين قالت:

- هو حضرتك أساسا بتعرف تضحك؟ فانفجر الحضور ضاحكين. فما كان منه إلا أن طردها من القاعة، ثم واصل الشرح كأن شيئا لم يحدث، وما إن انتهى إلا وجاءه استدعاء عاجل إلى مكتب عميد الكلية الذي كان غاضبا وخيره بين الاعتذار والإيقاف عن العمل. لم يوافق حسين على الاعتذار فكان الإيقاف.

٢

تفرض الأجواء نعومتها، تجبرك على أن تتحدث هامسا، تنصت سوزي اليه لامعة العينين، منبهرة: كيف لهذا الحاد الجاد أن يملك كل تلك المشاعر والأحاسيس؟!، قالت:

- تبدو كما لو كنت شاعرا ابن شاعر!

- أتقولين فيها؟ قالها حسين ثم أردف: كانت أمي تعشق شيئاً اسمه "اللغة العربية"، تعشق الشعر، قد تسمح الظروف لأُطلعك على خواطرها التي دونتها في كراسة خاصة بها. كانت تعشق لحظة الغروب، كانت تجلس في الأماسي على سطوح منزلنا، تنظر هائمةً منجذبة نحو الشمس المنسحبة وكأنها طقوس عبادةٍ تداوم عليها.
- لماذا إذاً لم تلتحق بقسم اللغة العربية؟ لماذا الإنجليزية؟
- مبكرا، علمت أن الإنجليزية هي لغة الأعمال، لتحصل على وظيفة عليك بالإنجليزية، فأردت أن أجمع بين الإنجليزية والأدب الذي أحب.. وماذا عنكِ ؟" سألها فجأة..
- بخصوص؟
- لماذا دخلت كلية الآداب؟ ولماذا كلية حكومية وليست خاصة، لاسيما.. تلعثم ولم تطاوعه الكلمات.. عاجلته درءاً للإحراج الذي ألم به..
- لاسيما أننا أغنياء، وأن جدي مسئول كبير.. أليس كذلك؟
- نعم.
- بداية، آداب انجليزي واجهة اجتماعية لا بأس بها، أما لماذا جامعة حكومية، فهذا الأمر يطول شرحه، لكن يكفي أن أخبرك بما كان يردده جدي من أن المسئول العاقل هو من

يصدر للجماهير أنه منهم، يشعر بما يشعرون، يتألم لآلامهم، يفرح لفرحهم، يعيش ظروفهم.. كان جدي يباهي في أحاديثه التليفزيونية بأنه لم يدخلنا تعليما خاصا، وطبعا لم يذكر أنه كان يأتي بجيش جرار من المدرسين الخصوصين ذوي الكفاءات العالية لتعويض ذلك الفارق.. اجتزأت ضحكة ساخرة وهي تقول: يعني ببساطة، دخلت جامعة حكومية على غرار المسئول الذي يشرب كوب ماء من الصنبور، أو يأكل خبزاً مدعوما أمام الكاميرات.. لكن الأكيد أن للأمر حسناته. توقفت للحظات ثم قالت وقد لمعت عيناها:

- يكفي أننا تعارفنا.. ما كان لك أن تدخل بيتنا الا لكفاءتك، على نهج جدي سارت مامي، تعوض فارق التعليم بمدرسين أكفاء، ومن أكفأ منك؟ الأول على الدفعة ومدرس بالكلية..

ضحك حسين وقال:

- كنت كذلك ولم أدخل بيتكم! بل وأُوقفت عن العمل..

أشاحت بوجهها وقالت:

- لا تذكرني بتلك الأيام.. لقد عشت أياما عصيبة، يؤنبني ضميري، يجافيني النوم، غابت ضحكتي، لا رغبة لي في

طعام وشراب وبدا وجهي شاحبا وجسدي نحيلا، الأمر الذي شد انتباه المحيطين بي لاسيما مامي التي سألتني مرارا وتكرارا عما ألم بي، ولم تتلق جوابا إلا عندما اختمر شيء ما بداخلي وشكلت موقفا عزمت أن أُقدم عليه، حينها طلبت منها أن تتدخل لعودتك إلى الكلية ورشحتُك كمدرس خاص، فرحبتَ على الفور، لم يكن ثمة صعوبة في الاعتذار من مدرسي السابق فقد عَوَّضته كثيرا.. هدأت سوزي وهي تنظر في عينيه وتقول:

- لكن تعرف، مظهرك الخارجي لا يدل عليك مطلقا؟

- بمعنى.

- لا يمكن لأحد أن يتوقع أن هذا الوجه الجاد يمكن أن يحمل هذا القلب وكل تلك المشاعر..

ضحك قائلا:

- حَدَّثتني أمي عن "حسين" تقول إنني سُميت على اسمه، كان صديقا للعائلة، كان قوي البنيان حاد الملامح كالتي تصفين، ومع ذلك كان رقيقا، يحمل قلب طفل..

- على ذكر ماما، متى ستزورانا؟.. حدثت مامي أنك تريدها في أمرٍ خاص..

مبديا شيئا من الانزعاج:

- أتعلم شيئا عن علاقتنا؟
- لم أحدثها، لكن أثق أنها ستفعل كل ما يسعدني.
- أليس من الأفضل أن تحدثيها أولا؟ لربما ترفض.
- ولماذا ترفض؟
- ربما تتحدث عن فارق المستوى..
- لا تشغل بالك.. كل شيء ستعرفه في أوانه.. المهم ، حدد الموعد المناسب لزيارتنا..

كانت سوزي قد قررت بعد هذا اللقاء أن تمهد لتلك الزيارة، وبمجرد أن حدثت والدتها بهذا الأمر إلآ وقوبلت برد عنيف، قالت هايدي بحدة:

- أنت مجنونة.. ثم واصلت ساخرة:
- ابنة رجل الأعمال أحمد صبري وحفيدة رجل الدولة الدكتور حازم أبو النجا تتزوج من شاب أمه بائعة في مكتبة! ألا تخجلين؟

هَمَّت سوزي بالدفاع عن موقفها، وقبل أن تنطق "يا مامي.." قاطعتها هايدي ولم تمنحها فرصة، قائلة: "الأمر غير قابل للنقاش. من الآن فصاعدا تقطعين كل علاقة به. من الغد سيكون لديك مدرس آخر. لو سمعت أنه اقترب منك أو تواصل معك سوف أدمر مستقبله.

لم تكن هايدي أكثر حيرة منها في ذلك الوقت. ارتسمت علامات الغضب على محياها، راحت تجوب غرفتها ذهابا وجيئة، لا تدري ماذا تفعل. ابنتها الوحيدة تضيع من بين يديها. فكرت أن تحدث والدها كما فعلت من قبل، لكنها عاد وأرجأت ذلك حين قفز عطية إلى ذهنها، أوكلت اليه بالمهمة. فكر عطية أن يرسل في طلب حسين غير أنه آثر أن يذهب اليه بنفسه. أراد أن يطَّلِع على حالهم، أراد أن يقنعه بفارق المستوى. كان عطية يخطط أن يقول له "المحبُ هو من يضحي، وعليه أن يضحي من أجل إسعاد سوزي. كان ينتوي في قرارة نفسه أن يمنحه مبلغا من المال أو أن يعرض عليه وظيفة بمرتب كبير في إحدى شركاته. في تلك الأيام حاول حسين التواصل مع سوزي لكنها لم تجبه. تواصل مع صديقتها المقربة "ماجي" ولم تبح له بشيء فتعاظمت دهشته.

كانت فاطمة إلى جوار حسين حين توقفت سيارة مرسيدس سوداء في مواجهتهم، ترجل عطية من سيارته وأشار إلى البودي جارد الخاص به بالانتظار، ثم واصل طريقه صوب المكتبة. كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساء، إنه الموعد الذي اعتادت فاطمة أن تغادر فيه إلى شقتهم لإعداد طعام العشاء. قبل أن تتخطى باب المكتبة كان عطية في مواجهة الباب، لم يلتفت إليها. كان تركيزه منصبا باتجاه حسين. رمقته سريعا ثم واصلت طريقها نحو مدخل البناية الرئيسي. غير أن صورة الرجل ذا البدلة الثمينة والعطر الفواح

والسيارة المرسيدس حركت أشياء بداخلها، لكأنما رأته من قبل، لكأنها تعرفه جيدا، لكن من هو؟ أين قابلته؟ لم تتذكر. انصرفت إلى إعداد الطعام وقد انتوت أن تسأل عنه حسين، فلربما كان يعرفه. كان حسين يعرف عطية، التقاه مرات عدة في لقاءات عابرة أثناء إلقائه الدروس على سوزي. حين دخل المكتبة هبَّ حسين مرحبا. عدل سريعا كرسياً كان إلى جواره وهو يستفسر منه عما يشرب. شكره عطية ودخل في الموضوع مباشرة كما خطط له. لكن المفاجأة كانت ردة فعل حسين والتي لم يتوقعها عطية. لم يقتنع حسين بما قاله، بل أنه رفض مساوماته، الأمر الذي لم يعتده عطيه. يقينه أن المال مفتاح كل شيء، فإذا بالمفتاح ينكسر على يد هذا الشاب. خرج عطية عن شعوره ولجأ عندئذ إلى التهديد قائلا:

- إن لم تبتعد عنها فسوف ..

وقبل أن يكمل تهديده قاطعه حسين:

- مثلي لا يهدد يا باشا، لن يمنعني عن سوزي غير الموت، أو أن تطلب هي ذلك.

انسحب عطية في صمت، ورغم غضبه لفشل مهمته إلا أنه كان مبهوراً بهذا الشاب الذي رفض أن يكون عبداً. تنهد حسرة على نفسه، كان يمني نفسه بولدٍ مثله. عاد عطية إلى هايدي محملا بهذا

الرفض فزاد حنقها. قررت أن تُقدم على الخيار الأخير، ذلك البديل الذي أرجأته وجعلته خيارها الأخير. لم يكن خيارا محببا لها، لقد أوقفته عن العمل من قبل حين تعرض لسوزي، وإن فعلت للمرة الثانية ربما يؤثر ذلك على علاقتها بابنتها. لكنه خيار المضطر.

كانت سوزي قد قررت أن تمتثل لرغبة والدتها وتقطع كل صلة لها بحسين خشية على مستقبله. لقد قص عليها كم كان الأمر شاقا عليه ووالدته من أجل تحقيق رغبتها. كانت تمني نفسها أن يحقق حسين ما فشلت فيه وينال أعلى الشهادات. تجاهلت سوزي اتصالاته، بل أنها كثيرا ما تغيبت عن محاضراتها هربا من مقابلته. هي تعلم والدتها جيدا" إن هددت نفذت". وكما كان الفراق شاقا على حسين كان كذلك على سوزي، أهملت نفسها، تغيبت عن محاضراتها، لا تفهم شيئا من مدرسها الجديد الذي جاؤوا به. شهور ثلاثة مرت والحزن يملأ القلوب ويعشش في الصدور. لم تعرف البسمة طريقها لشفاههما لاسيما بعد وفاة الدكتور حازم والذي كان ظهرا وسندا.. ورغم أن وفاة جدها شغلت هايدي عن معاقبة حسين، إلا أنها فتحت عليهما أبواب الجحيم. وكان عطية هو الجحيم عينه؛ راح يتفنن في إيذائهما، أمعن في الإساءة اليهما، كان كمن يستخرج مخزونا من الانتقام تراكم بداخله، إن لم يجد سببا لإمتهانهما أختلق أسبابا. منذ فترة منع الأطباء عنه كثيرا من الأطعمة، منعوا عنه اللحوم الحمراء والزيوت والملح الزائد والقائمة

تطول. تكفل الطهاة بتنفيذ تعليمات الأطباء، لم يكن لهايدي دور في ذلك. الآن بات يهينها مع كل وجبة، ينتفض غاضبا مع طريحة من النقد اللاذع زاعما زيادة الملح في الطعام أو أن الدجاج لم يطُه بشكل جيد، وأنه كان يتوجب عليها أن تشرف بنفسها على إعداد طعامه. لم يقتصر الأمر على الطعام بل امتد إلى ملابسه المهملة والغير مكوية، وأثاث المنزل الذي بات يراه غير مرتب ويفتقد إلى لمسة جمالية تليق به ومكانته، وهاتفها الذي لاينقطع، والوقت الذي تقضيه خارج الفيلا متنقلة بين النوادي والجمعيات النسائية، ونفقات سوزي المتعاظمة والتي جعلته يرفض سداد قيمة صيانة سيارتها. لقد وصل به الأمر أن أمتن عليهما بما ينفق، وكاد يضرب هايدي ذات مرة لأنها أرادت أن توقف هذه المهازل كما قالت.. لقد علمت سوزي الآن قدْر جدها، كان ظهرا وسندا. كل ذلك الامتهان ولم يمر على وفاة الرجل غير شهور، فما بالك بعد سنين "ماذا يخبأ لنا القدر؟" قالتها سوزي متحسرة.

٣

الأجواء الملتهبة طغت على برودة الطقس في بداية العام الميلادي ٢٠١١.. تصاعد وتيرة الاحتجاجات، تمدد المظاهرات إلى مدن ومحافظات جديدة، صوت المعارضة بات عاليا مزعجا،

شخصيات عدة بدأت تقفز من السفينة المترنحة، إقالة الحكومة، استقالة عضو أمانة السياسات بالحزب الحاكم، وحرائق عدة تطال مقار الحزب وقياداته، لم تسلم منها فيلا الدكتور "حازم أبو النجا"، الذي لم يتحمل الأنباء المتواترة عن حرق فيلته ومنعه من السفر والتحفظ على أمواله، وسقط صريعا. يقال أنه انتحر لكن تقرير الطب الشرعي أفاد أن سبب الوفاة نوبة قلبية.. لا يدري عطية إن كانت وفاة صهره له أم عليه. كان الرجل سندا له طيلة الأوقات الماضية إلا أن أي شخصية محسوبة على النظام باتت الآن تشكل عبئا هائلا على المحيطين بها بقدر قربها من النظام، هو نفسه جزء من النظام لكنه ليس كصهره الذي كان ركنا من أركان النظام، لعله تخفف من هذا العبء بموته.. حين رن هاتفه انقبض قلبه، هو الآخر ينتظر دوره ويعيش أسود أيامه منذ فقد حصانته البرلمانية، وتسرب إليه أنه وآخرين معرضون للمنع من السفر والتحفظ على أموالهم. يشعر أنه عاجز، وأن سيادته تتآكل، ونفوذه يتسرب من بين يديه. هدأ قليلا حين نظر في هاتفه المحمول وكان المتصل طه، تنفس بعمق حين قبل دعوته على العشاء.

المشهد الضبابي الذي خيم على البلاد، وصعود تيار الإسلام السياسي، دفعاه إلى معاودة الاتصال بـ "طه" لاسيما مع صعود نجمه. ما جال بخاطره يوما أنه سيعاود الاتصال به بعد أكثر من عشرين عاما وهو الذي تنصل منه من قبل بل وحاول قتله. كان

الأمر شاقا عليه، لم يكن يعرف ماذا سيقول له وكيف سيفتح معه حوارا؟ لكنها المصالح!. جاء على نفسه، هاتفه وطلب لقاءه. المدهش أن طه رحب على الفور ومن دون تردد. لكنه طلب أن يكون اللقاء في ذات المكان الذي اعتادا أن يلتقيا فيه.. بعد ساعات كانا سويا في أقصى هضبة المقطم، لقد تغير المكان الذي كان شاهدا على حواراتهما، لم يكن أحدهما في حاجة إلى نبش الماضي بعد أن تكفل المكان بذلك، لاسيما اللقاء الأخير؛ الأمر الذي استوجب على عطية أن يبادر بالحديث وأن يجيب عن سؤال مفاده، ما الجديد؟ ما الذي ذكرك بنا بعد كل تلك السنوات؟ وهو ما فعله عطية حين أخذ زمام المبادرة قائلا:

- وجدت من المناسب أن نلتقي في تلك الظروف، قالها عطية ثم واصل: كلانا في حاجة للآخر.

كاد طه ينفجر ضحكا وهو يقول: "آااااالآن" وقد أنكرت قَبْـلُ!

استثقل عطية صيغة الكلام والتي بدت مستوحاة من القرآن ردا على فرعون حين أوشك على الغرق "وقال "آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، فكان الرد" آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين".. ورغم وقعه الثقيل على قلبه لم يتوقف عطية أمام تشبيهه بفرعون وقال:

- كل شيء بأوانه يا طه.

رد طه:

- وماذا عن دم ريري؟

مرتبكا، أنكر عطية صلته بمقتلها. اكتفى طه بنظرات مكذبة أراد لها عطية ألا تستمر طويلا، فسارع قائلا:

- عموما، لننس الماضي، لنفتح صفحة جديدة. مد يده وهو يقول: لنتعاهد على ذلك، لكن طه لم يلتفت وظل ينظر إلى يد عطية الممدودة، تذكر طه يوم مد يده إليه من قبل ثم غدر به. انتظر قليلا ثم مد يده ببرود لتعانق يد عطية. وتأكيدا لطي صفحة الماضي كانت تلك العزومة العائلية، لم يشأ عطية أن تكون خارجية فالأجواء ملبدة، والعيون ترقب، والمتربصون كثر. دعا طه وعائلته إلى العشاء مساء الغد في فيلته، لم يعطه طه جوابا فورياً انتظارا لمعرفة ارتباطات أسرته.. وها هو الآن يؤكد الحضور.

كان اللقاء حميميا.. استقبال دافئ من عطية وأسرته لطه وزوجته السيدة هناء البارودي وهي التي تزوج عليها ريري. له منها الدكتور "سعد الدين" دكتور الجراحة العامة.. قدمت هناء تعازيها لهايدي في وفاة الدكتور حازم وسريعا تدفقت المواضيع الحوارية بينهما وكأنهما صديقتان منذ زمن، اشتبك طه مع عطية في

حوارات السياسة والبلد والأوضاع الملتهبة، وحده الدكتور سعد ظل يتابع سوزي على استحياء. لم يكن من السهل عليه أن يجد موضوعات حوارية معها، ربما طبيعته الخجولة، أو أنها طبيعة اللقاء الأول الذي عادة ما يسوده الحذر. لكن الحالة التي تملكته منذ وقعت عيناه عليها دفعته لاغتنام الفرصة، وخلق مواضيع حوارية. في بداية التعارف علم أنها حصلت مؤخرا على ليسانس الآداب، وبعد التهنئة، سألها:

- لماذا تحديدا آداب؟

ادعت عدم الفهم، قالت:

- معذرة، لم أفهم.
- أقصد، دخلتي آداب عن رغبة وحب أم أن التنسيق والمجموع من فرضا عليك ذلك؟
- لا طبعا، لا أحب أن يفرض علي شيء، دخلت الكلية التي أحبها.

كان حديثها مقتضبا، الأمر الذي فاقم من خجله، لكنه رغم ذلك ظل ممسكا بالفرصة، راح يختلق موضوعات دار معظمها حول التعليم ومشاكله ومدى رضاها عن الكلية وموادها الدراسية، وخطتها عقب التخرج..

كان عطية يرقبهما بارتياح بالغ، يشعر أن الأمور تسير بشكل أفضل مما خطط له، الدكتور وقع في حب سوزي من أول نظرة، ابتسم وقال في نفسه: نحن والإسلاميون الذين يقفزون باتجاه السلطة على وشك أن نكون نسايب.. وكما اُستقُبل طه وعائلته بترحاب ُودعوا بترحاب مثله، لم يشأ عطية أن يستبق الأحداث ويتحدث إلى سوزي عن الاستلطاف الذي أظهره الدكتور، وإنما أرجأه إلى حين.

٤

حوار مطول ذلك الذي دار بين الدكتور سعد الدين ووالده وكان محوره سوزي، الأمر الذي دعا طه أن يتساءل عن سر اهتمامه المفرط بها، حين حدثه عن إعجابه بها تغيرت ملامح وجهه، وبدا مضطربا.. زاد اضطرابه حين سأله عن العلاقة بينه وبين عطيه، ولماذا ظهرت هكذا فجأة؟! تهرب طه من سؤاله قائلا:

- يعني نستطيع أن نقول أن الدكتور سعد الدين طه وقع في مصيدة الحب؟

ابتسم الدكتور سعد وأطرق برأسه لتعانق عيناه الأرض قائلا:

- لا يزال الوقت مبكرا، لا زلت في حاجة إلى الجلوس معها.

- خلاص يا دكتور، نرد لهم العزومة، نعزمهم الخميس على الغداء.

ورغم قلق طه من علاقة محتملة كتلك إلا أنه كان لا يمانع أن يرتبط ابنه الوحيد بمن يحب وهو الذي رفض الزواج مرارا بعد تجربة ارتباط فاشلة كان طه وراءها حين أصر على أن يخطب له إحدى عضوات الجماعة.. شهور قليلة وأسرت الفتاة إليه أن والدها أجبرها على هذا الارتباط ليمنعها من الارتباط بشخص آخر كانت تود الارتباط به. يومها قدر الدكتور صنيعها وفك الارتباط وعزف عن الزواج منذ ذلك الحين.. سعادة ابنه الوحيد أو ربما تكفيرا عن صنيعه الأول دفع طه للاتصال سريعا بعطية الذي كان يتوقع ذلك الاتصال. دار الحديث في مجمله عن سوزي، سأله إن كانت مرتبطة أم لا، وأشياء أخرى كلها تشي أن الدكتور سعد مهتم بها، ثم دعاهم إلى الغداء. غير أن سوزي التي بدت مكتئبة لحصولها على الليسانس بتقدير مقبول وهي التي اعتادت على الامتياز في السنوات الثلاثة السابقة عبرت عن رفضها، وأصرت على عدم تلبية تلك الدعوة. الأمر ذاته أعلنته هايدي والتي تضامنت مع ابنتها لاسيما بعد أن أفصح عطية لهما عما يدور بخلده. تساءلت بحده:

- كيف لك أن تقرر ذلك من تلقاء نفسك؟

تمالك عطية أعصابه وراح يردد ذات الكلام:

- هذا الارتباط فيه مصالح كبيرة لنا، لاسيما في ظل الظروف الصعبة التي نشهدها الآن، طه قيادي في الجماعة، والجماعة في صدارة المشهد..

انتفضت هايدي:

- لن يحدث هذا ، لن أزوج ابنتي لأحد من هؤلاء.

قال عطية بتأنٍ وقد التمعت في عينيه نظرة غاضبة:

- الرأي هنا رأيي أنا، وما أقوله أمر للجميع.

ضحكت ساخرة:

- منذ متى؟

احتد عطية قائلا:

- من الآن فصاعدا.

- انت الظاهر نسيت نفسك.. يبدو أنك أسأت فهم صمتي حزنا على أبي خلال الفترة الماضية، ونسيت إلى من تتحدث؟

لم يتمالك نفسه وتركها لشيء كان يراودها منذ زمن، اقترب منها أكثر، سكن للحظة كأنما يستحضر شيئا من أعماقه قبل أن يرفع يده ويصفعها بعنف وهو يقول:

- أعلم من أنا ولمن أتحدث، ستتزوجه رغما عنك وعنها. الخميس القادم سنذهب إليهم على غداء تعارف، ثم

استدار خارجا ولم يلتفت اليها وهي تهذي وتهدد وتكيل له الشتائم.

٥

"لقد فعلتاها" قالها عطية حانقا حين عاد إلى الفيلا ولم يجدهما. هاتفاهما مغلقان، ترى أين ذهبتا؟ لم يتبق على موعدهم مع طه غير سويعات، ماذا سيقول للرجل؟ حين يأس من العثور عليهما قبل الموعد هاتف طه معتذرا ومعللا عدم الحضور بظرف طارئ، الأمر الذي أحرج طه كثيرا أمام ابنه وأثار سخطه. كانت سوزي قد تمكنت من إقناع هايدي بالفرار إلى حيث حسين ووالدته.. مكان آمن، بعيد عن عيون عطية ورجاله ريثما يرتُبون أمورهما. كانت فرصة لـ"هايدي" لتعيد بناء الثقة وترميم العلاقة مع ابنتها الوحيدة، وأيضا فرصة لاكتشاف حسين وأسرته عن قرب نزولا على رغبة سوزي.. لم تتوقع هايدي كل تلك الحفاوة التي اُستقبلت بها، ولا هذا الدفء الأسري الذي عاشته لأسبوع قضته في هذا المكان، أكلت أشياء كانت تسمع عنها، وعاشت لأيام بساطة الحياة.

مساء الخميس وهو اليوم الذي خصصته العائلة كإجازة أسبوعية من العمل الليلي في المكتبة، كانوا مجتمعين حول التلفاز، يحتسون الشاي، ويغصون في الضحكات وهم يشاهدون فيلما كوميديا للراحل إسماعيل ياسين. كان الارتياح باديا على سوزي وهي ترى والدتها وقد انسجمت معهما، لم تتوقع يوما أن تراها وقد جلست تقزقز اللب الأسمر وتحتسي الشاي الفرط وتشاهد فيلما قديما وتضحك من قلبها كما تفعل الآن. وبينما هم كذلك إذ دق جرس الباب، تكفل حسين بفتحه وما إن تقدم الضيف إلا وبركان الدهشة قد أصابهم، وأبقاهم فاغري العيون والأفواه. لم يكن القادم غير عطية. لأول الأمر لم يخطر ببال عطية أن هايدي هانم سليلة الحسب والنسب يمكن أن تذهب إلى هذا المكان الذي اعتبرته متدنيا ورفضت رفضا باتا أن تنحدر ابنتها إلى هذا المستوى. لكن عيون رجاله استطاعت بعد أسبوع واحد من البحث أن ترشد إلى مكان اختبائهما. غير أن دهشته بوجود هايدي تحديدا في هذا المكان وهذا الانسجام البادي عليها والتكيف السريع مع بساطة العيش، لم يكن يمثل شيئا إلى جانب دهشته بوجود فاطمة. لم يعرفها إلا بعد أن دقق النظر والتقت عيناه بعينيها. آخر ما كان يتوقعه أن تكون على قيد الحياة. بدورها فاطمة لم تكن تعلم أنه زوج هايدي. صحيح أنها كانت تعلم أن زوجها اسمه عطية غير أنها لم تفكر يوما أن يكون هو المقصود. تذكرت على الفور الرجل ذو

البدلة الثمينة والعطر الفواح والسيارة المرسيدس، لقد نسيت أن تسأل عنه حسين. نظرت بلهفة إلى حسين وقد تملكها الخوف عليه.. وضع عطية حدا للصمت الذي خلفته الصدمة وانفجر ضاحكا مستفسرا عن ذلك الذي جمع الشتيتين. لم يفهم أحدهم مغزى سؤاله. حين لم يجبه أحد طلب من زوجته وابنتها أن تغادرا معه على الفور، لكنهما رفضتا بشدة. تدخل حسين وأزاح يد عطية الذي حاول عنوة جر سوزي معه. خرجت فاطمة عن صمتها وطالبته باحترام المكان، واحترام رغبتيهما، وإلا...، قاطعها عطية وقد رفع حاجبيه مندهشا:

- وإلا ماذا؟!.. ثم عاود الضحك وهو يقول:
- فاطمة تهددني؟!

تصاعدت دهشتهم.. فاطمة!.. من أين له باسمها؟ سؤال قفز إلى أذهانهم.

- "فاطمة لا تهدد ولكن تحذر" قالتها فاطمة بشيء من الحدة ثم صمتت.

لملم عطية نفسه وخرج وهو يتوعد ويهدد، وكمن تلُقي "قلة" خلفه، قالت:

- أعلى ما في خيلك اركبه.

ما الذي يحدث؟ ماذا بعد إلا؟! ما علاقة فاطمة بعطيه؟ ومن أين لها بكل تلك الجرأة! أسئلة تضربهم بعنف تعجزهم عن التفكير. يسألونها ولا تجيب.. جلست مستسلمة على كرسي قريب، شعرت أن الماضي يطل برأسه، راحت تطرق باب الذكريات المواربة بالأساس وتستحضر أحداثاً ما غابت عنها يوما.. حين اعتقدوا أنها مجنونة، الحفرة التي لا أثر لها أسقطت عن حديثها يومئذ كل منطق، اعتبرته الشرطة مجرد هلاوس، حتى أنها لم تتوسع في إجراءاتها المعتادة، فلم تسأل عن صاحب المنزل المقابل، ولم تعاينه رغم أنه يعود لزوج صاحبة البلاغ وأحد المفقودين، بل أنه كان من الممكن أن يكون مأوى لخاطفي الصبي إن كان قد خُطف. فقط انصرفت مع عبارات عامة مطمئنة ووعود بعمل اللازم.

حين غادرت الشرطة، اتجهت فاطمة صوب المنزل المجاور، منزل عطية، لا تدري لماذا وأي دافع ذلك الذي قذف بها نحوه؟ لعله الخوف الذي اعتراها، أو الهرب ولو مؤقتا من مكان الحادث، أو لعله البحث عن خيط رفيع، أو محاولة لاستنفاذ الأسباب.. أو لكل تلك الأسباب مجتمعة وغيرها ذهبت. كعادتها، فتحت الباب برفق، كل شيء كان ساكنا وصامتا، وقتا ما قضته هناك، تتنقل بين غرف المنزل، تطالع وتنقب بعيون وجلة، لكن لا شيء ملفت، كل شيء بدا طبيعيا، كل شيء يشي أن البيت لم يُفتح منذ فترة..

السكون الطاغي، الغبار المتراكم الذي فرض نفسه على المكان، الرائحة المكتومة الخانقة التي ضاق صدرها بها وحالت بينها وبين المكوث طويلا. كانت الشمس تلملم أوراقها حين عادت فاطمة إلى بيتها. على مقربة من مكان الحفرة، جلست مهزومة، تطالع الشمس وهي تتوارى خلف الأفق البعيد..لا شيء تفعله سوى الانتظار والترقب.

وكأنما تآمرت عليها الأشياء، لا شيء يبرد نارها، لاشيء يبلّل ريقها، حتى الأرق حال بينها وبين النوم ولو لساعات قليلة.. أيام ثلاث مرت على الحادثة وهي على حالها، لا يكاد يغمض لها جفن حتى تقوم فزعة في جوف الليل، تستعذ بالله، تتناول كوب الماء، عبثا تستجدي النوم هربا من الأفكار التي تطاردها، تصلي الفجر، تدعوا الله كثيرا أن يفرج كربها.. الليلة وقبيل بزوغ الفجر شعرت بحركة مريبة، كأنما رأت أشباحا باتجاه منزل عطية المجاور، طردت الهاجس سريعا، استعاذت بالله من الشيطان الرجيم. راحت تتحسرعلى نفسها: "كل تلك التهيؤات يا ربي"! قالتها بمرارة، غير أن إضاءة خافتة تنبعث على استحياء من المنزل المقابل دفعها للتحرك. الأمر ليس تهيؤات كما كانت تظن.. لعله عطية ورفاقه، لعلهم في حاجة إلى المساعدة. هرعت صوب المنزل، وبحذر مفرط فتحت الباب وما إن سارت خطوات حتى هوى على رأسها شيء ثقيل، شيء أشبه بعصا غليظة، لم تتذكر بعدها شيء.. استيقظت

على ألم حاد يضرب مؤخرة رأسها. هالها أن تكون في غرفتها، ممدة على سريرها الخشبي. حاولت أن تجد تفسيرا لذلك لكن عقلها لم ينصفها، لم يقدم لها تبريرا منطقيا.

أسابيع قضتها فاطمة في الانتظار والترقب، تمنى نفسها أن تسمع خبراً جديداً يدخل السرورعلى قلبها المتخم بالأوجاع، ولم لا وقد وعدتها الشرطة؟ ألم تقل لها: "اطمئني، سوف نقوم بعمل اللازم، سنبذل قصارى جهدنا، وسنتواصل معك حال جد جديد". غير أن جديدا لم يَجد رغم مرور كل تلك الأيام. حين راجعت الشرطة لم تخبرهم بتلك الواقعة التي لم تتيقن من حدوثها، ورغم ذلك لم تتغير نظرتهم إليها، تلك النظرة التي تتهمها بالجنون.. الأمر الذي فاقم همها ودفعها للتحرك منفردة. أرادت أن تثبت أنها عاقلة حتى ولو عبر ذلك التصرف المجنون الذي قررت أن تقدم عليه، ورغم صعوبة تبريره إلا أنها لم تهتم.. استأجرت بعض الأفرادِ للحفر من جديد، كانت تأمل في العثور على باب المقبرة، تأمل أن تجد الدرج الحجري، كانت تأمل أن تثبت لنفسها، قبل غيرها، أنها عاقلة.. حفرت أعماقا كبيرة غير أنها لم تستدل على شيء، وظل الشك يراودها، بل أنه تعاظم بعد جولة بحث مضنية، لم تجد خلالها قسيمة زواج لها من عطية ولم يُستدل على مأذون شرعي اسمه "نبيل"؛ استسلمت، لم تعد تخبر أحدا بشيء. لم تعد تراجع الشرطة. فقط، كانت تجلس لساعات طوال، تجتر الأحداث

الحاضرة بقوة خلف باب الذكريات، تتذكر المشاهد، تتذكر طفلها الذي لا تعرف عنه شيئا، لا تعرف إن كان على قيد الحياة أم فارقها، تتخيله وقد برأ من كل سقم، تتخيله وهو يحبو، تتخيله يحاول المشي، تهم أن تسنده حين يوشك على السقوط غيرأنها تتراجع، تتركه يعتمد على ذاته، يقع من أجل أن يعاود ويمشي بل ويهرول، كالأيام التي تهرول أمامها.. في عصر وصف بالسرعة كل شيء يهرول، حتى ديونها تتصاعد بسرعة هائلة، ولم لا وهي ساكنة، لا تفعل شيئا لمجاراة الحركة السريعة من حولها سوى ملازمة تلك البقعة من الأرض التي خالتها هي الأخرى ساكنة. لم يكن الأمر ليستمر هكذا طويلا، ضيق الحال والديون دفعاها باتجاه الحاجة "أمينة" مرة أخرى. وبينما كانت منهمكة في تقشير الجمبري والذي عاودت العمل به إذ بها تتوقف حين شعرت بدوارٍ، هرعت إلى الحمام، أفرغت ما في معدتها، وما إن انتهت إلا وظلت عيناها مفتوحتين، وعقلها شارد، تحاصرها الأفكار. ما تهرب منه يتأكد بتكرار تلك الأعراض التي تعلمها جيدا، لقد مرت بها من قبل، تلك الأعراض لا يمكن لها أن تخطئها، إنها أعراض "حمل".. حين استقرت على هذا التوصيف، نازعتها مشاعر متضاربة، هي ليست إذا مجنونة، لقد تزوجت عطية وحملت منه، لم يمسها أحد غيره.. لكنها عادت وفكرت في كلام الناس، ما هي إلا شهور قليلة وتظهر آثار الحمل، ماذا ستقول لهم، كنت

متزوجة! أين دليلك؟ لا شيء.. كانت الحاجة أمينة ترقبها في صمت تحلل سلوكها وهي التي لم تأخذ من الزمن بياض الشعر والتجاعيد التي علت وجهها فحسب وإنما ايضا أخذت منه الخبرة الكافية لتحليل مثل تلك السلوكيات..حين فرغت النساء من عملهن وهممن بالخروج استبقت فاطمة التي ارتبكت قليلا حين جلست وحيدة في مواجهتها، تفحصتها قبل أن تسألها:

– الأ تريدين أن تحدثيني في شيء يا فاطمة؟ أنا مثل أمك!

عندها انفجرت فاطمة باكية وراحت تقص عليها ما حدث..

٦

في شقته البسيطة المكونة من ثلاث غرف والتي تعلو مكتبته الصغيرة جلس ابراهيم البنداري على كرسي صالون مدهب، أمامه طاولة صغيرة تستقر فوقها قطعة رخام وضع عليها كوب شاي غير ممتلئ. اعتاد الحاج أن يحتسي شايه قبل أن ينزل إلى صلاة العصر في المسجد القريب ثم يتوجه مباشرة إلى مكتبته التي لم تعد تصمد في مواجهة المكتبات العصرية. بعض الهدايا والميداليات والأكسسوارات التي لا يقربها أحد، إلى جانب ماكينة تصوير بالية وبعض الكتب والكراسات والأدوات الكتابية التي تبقيها على قيد الحياة. إيراد المكتبة الأكبر يعتمد على بعض ملخصات المواد الدراسية التي يَعهد مدرسوها إليه ببيعها.. كان ابراهيم البنداري قد

قرر في شبابه وعقب عودته من العراق أن يستغل بدروم منزله الصغير الذي يمسك بناصية شارعين في تلك الحارة الضيقة، ولأنه لا يمتلك مهنة بعينها راح يبحث عن النشاط الأمثل الذي يمكن له أن يستثمر فيه المبلغ البسيط الذي ادخره من فترة عمله القصيرة بالعراق، والتي وضع حدا لها عقب وفاة والده. أشار عليه أحد الناصحين أن يراعي طبيعة المنطقة والمشاريع الأخرى المجاورة وقدرته المالية عند اختياره للنشاط .. أحصى الأنشطة المجاورة.. مخبز بلدي، محل فول وفلافل، بقالتان، منجرة، محل ملابس مغلق، محل لبيع الأثاث المستعمل.. بعد تمحيص واستشارات خلص إلى مشروع "المكتبة"، صحيح ثمة مكتبة أخرى في مواجهة المدرسة الابتدائي القريبة منهم، إلا أن مكتبته تلك يمكن أن تخدم هذه الكتلة السكانية الكبيرة. كان المشروع مجديا في بداياته، استطاع مع إيجار الشقة العلوية أن ينفق عليه بعد زواجه، لاسيما أنه ظل مع زوجته وحيدين بلا ذرية لسنوات عدة. حين أثبتت التحاليل الطبية أن أسباب عدم الإنجاب تعود إليه، ارتدى قفاز البطولة، وقال لنفسه "لو أن زوجتي كانت السبب لتزوجت عليها". لم يشأ أن يكون أنانيا، ترك لها الحرية فاختارت الفراق آملا في طفل تحلم به.. وظل وحيدا. لم يعد يهتم بالمكتبة، لعل الأمر يرجع إلى ما كان يقرأه في عيون الآخرين من أن عليه أن يريح نفسه، فلمن يعمل إن كان لا وريث له؟! لكنه مع ذلك ظل محافظا على

طقوسه.. يستيقظ في الصباح يصلي الفجر في المسجد، ثم يعود إلى بيته، يقرأ وِرده القرآني حتى الشروق ثم يصلي الضحى ويخلد للنوم. دوامه اليومي لا يبدأ عادة إلا بعد صلاة العصر.. كان ابراهيم البنداري في مكتبته بعد العصر حين زاره صديقه ورفيق رحلته إلى العراق "مصباح" السائق.. ورغم أن إبراهيم يصغر مصباح بسنوات إلا أن المدة البسيطة التي قضاها سويا في العراق جعلت منه أخا وصديقا. ظل الصديقان على تواصل حتى بعد نزول مصباح من العراق والذي اعتاد في كل زيارة له إلى القاهرة أن يعرج إلى رفيقه وحبيبه إبراهيم البنداري، يتذكران الماضي، يفضي أحدهما إلى الآخر، ويزيل كل منهما عن رفيقه ما أثقل كاهله وكدر صفوه.. ورغم أنه في كل مرة كان يثير معه ذات الموضوع إلا أنه كان أكثر إلحاحا هذه المرة، سأله:

- ألم تنتوي الزواج بعد؟ العمر يجري يا إبراهيم!

ضحك ابراهيم متحسرا:

- لقد جربت حظي في الزواج مرة وكفاها تجربة.. صمت للحظة ثم واصل: ثم من تلك التي ستقبل بي؟ رجل أربعيني عاقر!

ابتسم مصباح قائلا:

- من ناحية "من تقبل؟" فهن كثيرات.. عروستك عندي يا إبراهيم، حلوة، صغيرة، وعندها طفل صغير، وانت تعرف أبوها، نبهتني إليها زوجتي أمينة الله يصلح حالها وحملتني اليك رسالة قالت فيها بالحرف الواحد: "الحاجة أمينة تبلغك السلام وترشح لك فاطمة"..

عندها لَان إبراهيم الذي يقدر الحاجة أمينة كثيراً، وسأله:

- من أبوها، وما قصتها؟
- أما أبوها، فهو "رزق"، بلدياتي، كان يعمل معي سائقا بالعراق، وقد رأيته انت وتحدثت إليه أكثر من مرة في زياراتك لي هناك.. وراح مصباح يقص عليه حكاية فاطمة كما سمعها تفصيلا من زوجته أمينة..

كانت فاطمة قد رفضت الأمر حين عرضت عليها أمينة الارتباط بإبراهيم البنداري، وقالت:

- يا خالة، أنت مكانتك عندي كبيرة، وفضلك دين يطوق عنقي، ولن أنسى لك وقفتك إلى جواري في ولادتي الأولى والثانية، ليس هذا فقط ولكن أيضا وفرتي لي عملا حين ضاق بي الحال، وكنت مخزنا مؤتمنا لأسراري حين لم أجد من أسر إليه. لكن ليس معنى هذا أن تبيعني إلى رجل عاقر،عمره يقترب من عمر والدي!.

ردت أمينة بصوت بدا متأثرا:

- أنا أبيعيك يا فاطمة! الله يسامحك، لن اغضب منك. ثم راحت تقنعها والابتسامة تلازم شفتيها:

- يا بنتي، انت محتاجة مصاريف، ومحتاجة رجل في ظهرك، محتاجة تعلمي ابنك كويس، وتعليمه يتطلب أوراقا ومستندات، عند تسجيل ابنك: إلى من سينتسب؟ َمن أبوه؟ أين قسيمة الزواج؟.. إبراهيم البنداري صحيح أنه عاقر كما تقولين، وصحيح أنه يكبرك بسنوات، لكنه رجل طيب، مقتدر، ومقطوع من شجرة، وفوق كل هذا يعرف أباك جيدا وسوف يحتضنك وابنك.. لأني أحبك يا فاطمة، ووالدتك الله يرحمها كانت حبيبتي وفي مقام أختي، فأنا أقول لك هذا الكلام، والرأي لك أولا وأخيرا.

كانت أمينة ُمقْنعِة.. وافقت فاطمة على الزواج بإبراهيم عقب لقاء جمعهما في منزل مصباح، يومها حدثها إبراهيم بكلمات تمس شغاف القلب، وصلت كلماته إلى قلبها دون عناء، تجيد هي لغة القلوب، تضعف كثيرا أمام مفرداتها، تأسرها الأحاسيس والمشاعر الإنسانية. وقد كان لتسع سنوات من الزواج إنسانا، غمرها وابنها بعطفه، أنساها ما عاشته من مآس، شيء واحد لم يستطع أن ينسيها إياه وهو صغيرها الذي لا تعرف عنه شيئا، كل ما استطاع أن يفعله أن يزرع في قلبها الصبر. في مرضه كانت تجلس في

المكتبة، وحين بلغ حسين العاشرة كان الموت قد غيب الحاج ابراهيم الذي ترك لهما بيتا من شقتين والمكتبة، يسكنون في شقة ويؤجرون الأخرى، باعت فاطمة بيتها بالفيوم، لم يكن سهلا عليها أن تقدم على خطوة كهذه، هذا البيت الذي شهد نشأتها وشاركها عزلتها وذكرياتها.. حين عاد أبوها من العراق شيد هذا البيت متأثرا بالطراز الخليجي في المعمار حيث الامتدادات الأفقية لا الرأسية. كان التصميم وقتها غريبا، لم يكن المصريون منشغلين ببيوت ذات مساحات كبيرة، قدر انشغالهم بشققٍ مستقلة توفرها لهم طوابق متعددة تحمل بعضها بعضا لارتفاعاتٍ شاهقة.. أنفق على البيت حصيلة عمله بالعراق.. اشترى أرضا بعيدة قطعت صلتها بالعمران حيث الأسعار أكثر حنوا. ما كان له أن ينفذ تصميمه هذا في الحيز العمراني حيث الأسعار تتباهى بتصاعدها المستمر. شيد البيت من أربعة غرفَ وحمامين، حَوش ضرب حوله سورا لم يكتف بالتأمين وإنما ساهم في مزيد من العزلة.. بعد تردد أقدمت فاطمة على بيع هذا البيت، وتوسعت في المكتبة، ملأتها بالكتب والإكسسوارات واستبدلت ماكينة التصوير بأخرى حديثة، وكانت تقضي فيها أوقاتا طويلة، تقرأ وتبيع وترتب وتعيد الترتيب، كان حسين يساعدها على قدر طاقته حتى بعدما تخرج من الكلية. أرادت فاطمة أن تختبره يوما حين عُين معيدا في الكلية، منعته من دخول المكتبة، قالت: لم يعد المكان لائقا بك، أخشى أن يراك

أحدُ طلابك. يومها غضب كثيراً وازداد تمسكا بما يفعله، بل أن المكتبة لم تعد له مجرد مكانا للبيع وإنما صارت أيضا مكتبا يستذكر فيه دروسه.

٧

كالمجنون ظل عطية يضرب كفا على كف؟ يتحرك بعصبية في بهو فيلته الفسيح، يحدث نفسه: ظننتها ماتت فإذا بها على قيد الحياة، تترك الفيوم لتتزوج في القاهرة وتنجب طفلا يكبر ويصبح شابا، ومن دون كل بنات القاهرة يرتبط بـ"سوزي"، ابنة زوجتي، ويتفقون جميعهم عليَّ! ضَحِك ضِحك هستيريا، وقال ساخرا: لو قص عليَّ أحدهم تلك القصة ما صدقت، إنها أشبه بالأفلام العربي!. ثم توقف فجأة وقد تبدلت ملامحه، ثار الدم في وجهه وجحظت عيناه وراح يتوعدهم ويقول: لن أسمح لأحد أن يعرقل مسيرتي، وصلت إلى ما وصلت إليه بمجهودي، سترين يا فاطمة، وسترون جميعا ما أنا فاعل بكم، ومن يضحك أخيرا يضحك كثيرا.. أيام عدة مرت على تهديداته قبل أن تصبح واقعا. رفع هاتفه المحمول، اتصل بشخص ما، وما هي إلا سويعات وكانت أوامره قد نُفذت على أرض الواقع.. دخلت سيدة منتقبة إلى المكتبة، زعمت أنها بحاجة إلى بعض الأغراض، افتعلت مُشادَّة، ثم أطلقت استغاثة دخل على أثرها أربعة رجال كانوا ينتظرون خارجا

بالسيارة، هشموا كل شيء وأخرجوا باطن المكتبة وأوسعوا حسين ضربا حتى سقط أرضا بلا حراك ثم لاذوا بالفرار قبل أن يتوافد الناس إلى المكان..

نقل حسين إلى المستشفى في حالٍ حرجة. تطلب الأمر أربعة أيام ليصرح الطبيب المعالج أن حالته الآن باتت مستقرة نسبيا غير أن الأمر لا يزال يتطلب مكوثه في المستشفى. لم تتحمل فاطمة المشهد حين رأته مكبلا بالضمائد والأربطة لا يستطيع أن يحرك حتى يديه، فأجهشت بالبكاء، ورغم محاولة سوزي إشاعة جوٍ من البهجة وهي تقول إنه "زي الفل" وكلها يومين ثلاثة ويخرج، إلاّ أنها لم تفلح في وضع حد لانهيار فاطمة فاصطحبتها خارجا بعيدا عن غرفة حسين.. بعد أن هدأت فاطمة سألتها سوزي السؤال الذي قرأت مغزاه في عيني حسين حين نظر إليها في عتاب. كان كمن أراد أن يقول: "فجأة يقتحم علينا حياتنا، فجأة نكتشف أن ثمة علاقة بينكما، تصعدين لهجتك معه رغم أنك تعلمين قدره ومكانته، يهددك في رابعة النهار دون مواراة وينفذ تهديداته غير مكترث لعقاب، وما لِت إلى الآن صامتة، لماذا؟! وإلى متى هذا الصمت؟". الآن تواجهها سوزي بالأمر ذاته وتطالبها بالإفصاح عن علاقتها بعطيه. غير أن فاطمة لم تُفصح لها عن شيء وقالت في حدة:

- أنا أحافظ على ابني.. ثم واصلت بعد أن تبدلت نبرتها إلى ما يشبه الاستعطاف: أرجو أن تساعديني ولا تتحدثي في هذا الأمر مطلقا. تعالي نتفق على شيء، إن سأل حسين عن تلك العلاقة لنقل: "كان عطية جارا قديما إبان فقره"، ودعيني أضع النهاية بمعرفتي، هذا إن كنت بالفعل تحبين حسين.

قالتها فاطمة ثم انصرفت. حاولت سوزي أن تسألها عن وجهتها غير أنها لم ترد. عادت إلى غرفة حسين محملة بدهشة كبيرة تعاظمت حين لم تجد والدتها، قبل أن تتفاقم حين أغلقت الهاتف سريعا ولم تمنحها وقتا للاسترسال وتركتها تخمن ما هو المشوار الصغير الذي أخبرتها به واستدعى كل تلك العجلة للحد الذي جعلها تخرج دون أن تخبرها.

كانت فاطمة قد ترددت قليلا قبل أن تُسر بحكايتها إلى هايدي، غير أنها سرعان ما اطمأنت لذلك، حدثت نفسها: هايدي امرأة عاقلة، ناضجة، لا يخشى أن تفشي سرا. ثم إنها في حاجة إلى مساعدتها في مواجهة عطية، وهو ما حدث بالفعل عندما قررت الذهاب إليه.. كانت هايدي تنتظر في سيارتها بالقرب من مدخل المستشفى حين جاءتها فاطمة على عجل، محملة بشحنة غضب هائلة، ذهبا سويا باتجاه فيلا عطيه. في الطريق كانت تفكر في المواجهة المزمعة: هل تطلعه على الحقيقة؟

هل تخبره أن حسين ابنه؟ قد يرق ويكف عنه أذاه، غير أنها عادت وفكرت أن الأمر قد يفتح عليهما النار. لم تحسم أمرها حين وصلا إلى الفيلا، لم يكن من الصعب عليها أن تدخل بعد أن رتبت هايدي الأمر.. كانت هايدي تعلم أنه لا يذهب إلى عمله في فترته المسائية قبل الخامسة، تأكدت من وجوده حين رأت سيارته المرسيدس السوداء ما تزال رابضة في مكانها داخل الفيلا، أكثر من ذلك أنها كانت قد هاتفت شخصا ما يبدو أنه أحد رجالها داخل الفيلا والذي أكد لها وجوده في بهو الفيلا. دلفت فاطمة وحدها بعد أن آثرت هايدي الانتظار خارجا.. كان مسترخياً على أحد الكراسي مغمض العينين. فتح عينيه بتوجّس حين استشعر حركة إلى جواره، ثم ما لبثت أن اتسعت حدقتاه على مصراعيها، هب واقفا وأشار باتجاه الباب، هَمَّ أن يطردها إلا أنه تمالك نفسه وتراجع، أراد أن يعرف كيف دخلت لينزل بمن أدخلها أشد العقاب، سألها:

- كيف دخلت إلى هنا؟

أجابت بثقة:

- لست وحدك من يستطيع أن يفتح الأبواب المغلقة. ثم واصلت:
- ظننت أني سأكون الهدف وليس ابني.

- وماذا أفعل بموتك؟
- كالذي كنت تريد أن تفعله منذ ثلاثة وثلاثين عاما، يوم حاولت قتلي، أتذكر ذلك اليوم؟

تخلص عطيه سريعا من ارتباك اعتراه ثم قال:

- دعكِ من تلك التخاريف، وابعدي ابنك عن سوزي، لو نجا هذه المرة فلن ينجو المرة القادمة.
- ليس بمستغرب عليك أن تقتل ولدك، فعلتها من قبل وقتلك ابنك الرضيع وها أَنت تعود وتحاول مع ابنك الآخر وقد صار شابا.

سألها عطية مندهشا:

- ماذا تقصدين، هل تعنين أن حسين ابني؟ كيف؟!
- الأمر لا يحتاج شرحا، زواج "وهمي" أفضى إلى طفل، لم أتمكن من قيده، تزوجت زواجا حقيقيا برجل محترم، سجل حسين على اسمه حتى أتمكن من قيده وتعليمه.

انتفض عطيه:

- آه يا مزورين، لسوف أزج بكم في السجون.
- المزورون تعرفهم أنت جيدا، أنا أقص عليك التفاصيل، لتموت كمدا بحسرتك.. عمرك الآن تخطى الستين، حصلت على المال والسلطان، ماذا حققت بهما؟ ستموت

دون ولد يُخَلد اسمك، ستموت قهرا دون أن تحصل على سعادة ظننت يوما أن المال سيحققها لك. أخبرتني هايدي أنك ممنوع منذ زمن عن الطعام إلا من طعام المرضى، نظرك صار ضعيفا، ظهرك صار محنيا، أموالك ستأخذها الدولة وسلطانك سيزول، أخبرني طه أن الحجز على أموالك ومنعك من السفر مسألة وقت ليس أكثر..

هبَّ عطية في وجهها :

- انت واهمة، لن يستطيع أحد أن يأخذ مني شيئا وسأخذ ابني بالقانون أو بغير القانون.. واتفضلي أُخروجي قبل أن أدعو الخدم ليلقوا بك في الشارع.
- سأخرج، لكن قبل ذلك أريد فقط أن أخبرك أن طه يبلغك السلام، كان في زيارتنا منذ عدة أيام، كان غاضبا للغاية منك، لقد أحرجته أمام ابنه الوحيد حين أخبرته بموافقة سوزي على الزواج منه، ثم اتضح كذبك، الرجل لا يثق بك، تقصى الأمر، تواصل مع "ماجي" صديقة سوزي التي أخبرته بالحقيقة وجاءنا ليستفسر ويتأكد، بالطبع لم يكن يتوقع وجودي، لكنها كانت فرصة جيدة ليقص علي ما كنت أجهله من جرائمك، قد تجده في الطريق اليك الآن، أخبرني أن بينكما حساباً عسيرا حان وقت تصفيته، ثم استدارت قائلة:

- أنا سأخرج وأكرر عليك: لو اقتربت مرة أخرى من أحدهم سوف يكون انتقامي عسيرا.

رد بسخرية: غبية كعادتك، لن يصدقك أحد.

- حتى لو لم يصدقني أحد، سيصدقني ابني، لن أبادر وأخبره إلا إذا اضطررت لذلك، عندها سأخبره ليتولى هو الانتقام منك، آمل ألا تضطرني إلى ذلك.. قالتها ثم خرجت وتركته غارقا في بحر من الذهول.

٨

"خلاص يا عطية، انتهت اللعبة" قالها طه مبتسما.

- أي لعبة تقصد؟

- الأمور في اتجاهها إلينا، الإعلان الدستوري تم إقراره، الانتخابات البرلمانية على الأبواب، حزبكم تم حله وبالقانون، وقانون العزل السياسي بانتظاركم.. يتردد أن اسمكم ضمن مجموعة من الأسماء التي على وشك أن تمنع من السفر ويتحفظ على أموالها.. مبتسما قال طه:

- بإمكانك الهرب الآن يا عطية، انفد بجلدك يا رجل.. ثم ضحك ساخراً، الأمر الذي أغضب عطية وسأله:

- أِمن أجل هذا جئت؟!

أجابه عطية وقد احتد صوته واكتست ملامح وجهه بشيء من الجد:

- لا طبعا.. ثم أردف: جئت اتشفى فيك، وربما أصفي حسابي معك. حاولت قتلي، قتلت ريري، أحرجتني أمام ابني الوحيد، ألا ترى أن حسابك معي صار ثقيلا ووجب تصفيته.

قفز الدم إلى عروق عطية وبصوت عالٍ طرده، لكن "طه" لم يبرح مكانه وظل يضحك ثم أخرج مسدساً كان في حوزته وصوبه باتجاه عطية الذي أصيب بالذعر قائلا:

- انت بترفع مسدسك عليَّ يا طه؟

رد طه ببرود:

- وأقتلك أيضا، ألم اقل لك أن الحساب أصبح ثقيلا. ثم ارتفع بالمسدس قليلا صوب جبهة عطية الذي برزت عيناه من الدهشة، حين قال له:
- تَشَهد على روحك يا عطية.
- يا مجنون، ماذا تستفيد من قتلي؟
- سأنتقم.. للانتقام لذة لا تضاهيها لذة، لذة تشفي الصدور، تجبر انكسارها. لعلك لم تجربها يوما! لم تجرب ذلك الإحساس الفريد، أن ترى شخصا كان يتعالي عليك، يعاملك بازدراء، يتهرب منك، يحاول إذلالك، بل وقتلك، تراه الآن بين يديك، منكسراً، صاغرا، ذليلا، يستعطفك حد التوسل أن ترحمه. ماذا تفعل لو كنت مكان هذا الرجل يا عطية؟

لم يتلق طه ردا غير مزيد من الهلع وشت به عينا عطية الفاغرتان. فَدَرطه ساعده على كامل استقامته، لامس زناد

مسدسه، ضغط ببطء مفرط إمعانا في إيلام عطية، ثوان وانطلقت رصاصة محدثة دويا هرع على إثره الخدم مذعورين.

٩

على مأدبة الافطار كانت سوزي تقنع فاطمة بتناول سندوتشا آخر من أجل صحتها، تنبه ثلاثتهم إلى رنات هاتف هايدي المميزة، طالعتها العيون حين ردت "نعم أنا.."، تغيرت ملامح وجهها وهي تنصت إلى الطرف الآخر، وترد بكلمات لا يُستشف منها شيئا، متى.. كيف.. حاضر.. ثم أغلقت الهاتف.

بادرتها سوزي:

- خير يا مامي..

قالت في هدوء:

- أنكل "عطية" مات.. حضري نفسك لنعود إلى الفيلا.
- "البقاء لله" قالتها فاطمة دون تأثر.. ثم استطردت، "أراح واستراح" قبل أن تدرك أن كلماتها قد تبدو ثقيلة فأردفت: ربنا يرحمه ويرحمنا جميعا .. لكن.. كيف مات؟!

نظرت إليها هايدي نظرة تحتمل كل التأويلات ثم نهضت دون أن تجيب.

كانت الصحف قد تناولت الخبر وبصيغة تكاد تكون واحدة "العثور على جثة رجل الأعمال عطية سعيد أحمد متحللة في بيت له بالفيوم على مقربة من بحيرة قارون" وفي التفاصيل: الفحص الظاهري للجثة يشي أن الوفاة غير طبيعية وتبحث الجهات المختصة فرضيات عدة من بينها الانتحار أو القتل.. كانت الشرطة قد تلقت بلاغا من الجيران يفيد بوجود سيارة مرسيدس ملاكي القاهرة لم تتحرك منذ أسابيع، ويخشى أن تكون لإرهابيين، حاولوا البحث عن صاحبها دون جدوى فأبلغوا الشرطة، وبكسر باب المنزل المتاخم للسيارة عُثر بداخله على جثة المذكور.

كان وقع الخبر مدويا، فالرجل شخصية عامة، ورغم انشغال الناس بالأحداث الساخنة التي تعصف بالبلاد إلا أن الخبر وجد لنفسه مكانا بين أهم الأخبار.

تحقيقات موسعة أجرتها النيابة مع كل المحيطين بالمجني عليه، بدأتها بالتحقيق مع خدمه وسائقه والبودي جارد الخاص به ثم جاء الدور على زوجته التي بدت متأثرة، غير أن نبرة الحزن التي رافقت أجوبتها على سؤال المحقق عن الاسم والسن والعنوان تلاشت سريعا وحل محلها تركيز شديد عندما سألها:

- لماذا تركتِ مسكنك؟

أجابت باقتضاب:

- بعض الخلافات الشخصية.
- مثل ماذا؟

انتظرت للحظة ثم قالت:

- كان عطية يريد أن يفرض على ابنتي عريسا لا ترغب فيه.

أطرق المحقق رأسه إلى الأرض ثم عاد ورفعها ببطء وقد علت وجهه بسمة ساخرة وهو يقول:

- وهل ذلك سبب كافٍ لقتله؟

بانفعال قالت:

- لم أقتله؟ ولماذا أقتله؟ سوزي ليست ابنته ولا وصاية له عليها.
- قد يتعلق الأمر بالميراث مثلا؟

ردت بثقة:

- هو زوجي، وأحصل منه على ما أريد،فلماذا أقتله إذاً؟
- بماذا . إذن . تفسرين وجود مسدسك إلى جوار جثة المجني عليه؟
- لا أدري، ربما سُرق..
- من باعتقادك الذي سرقه؟
- لا أدري.

- من له مصلحة في قتل زوجك؟
- لا أدري.
- لماذا ذهبتِ إلى منزل فاطمة تحديدا؟
- لم يكن لدينا بدائل أخرى، حرقت فيلا والدي، ولم أحبذ أن أذهب إلى فندق، ثم انها كانت فرصة للتعرف على عائلة حسين، ذلك الشاب الذي تريد ابنتي الارتباط به.
- هل لديك أقوال أخرى؟
- كلا.

غادرت هايدي النيابة بعد أن وقعت على أقوالها...

كانت النيابة قد استدعت سوزي هي الأخرى والتي جلست مرتبكة في مواجهة المحقق، هذه هي المرة الأولى التي تتعرض فيها إلى موقف كهذا، سألها المحقق بهدوء:

- لماذا تركتِ مسكنك؟

ببراءة قالت:

- هربا من معاملة أنكل "عطية" السيئة، واعتراضا على العريس الذي أراد أن يفرضه علّي.

بخبث سألها المحقق:

- وهل هذا دافع كاف لتقتليه؟

أصيبت بالذعر من الاتهام، وسارعت بنفيه قائلة:

- لم أقتله؟ لامصلحة لي في قتله.

سألها سريعا:

- ومن تعتقدين أن له مصلحة في قتله؟

- لا أدري.

تسارعت وتيرة الأسئلة التي يلقيها عليها المحقق، سألها:

- هل تعتقدين أن لتلك الجريمة علاقة بالاعتداء على حسين؟

ترددت قليلا وهي تستحضر كلمات فاطمة التي رفضت اتهام عطية في الاعتداء على حسين وقالت أن عليها هي لا غيرها أن تضع نهاية لتلك القصة، غير أنها أشفقت عليها، لو أنها أفصحت عن ذلك للمحقق لأتهمها على الفور بقتل عطية، فسارعت قائلة:

- كلا.

سألها المحقق وقد خفف من وتيرة سرعة طرح الأسئلة:

- من هو الشخص الذي أراد المجني عليه أن يفرضه عليك؟

- الدكتور سعد الدين طه...

غادرت سوزي بعد أن وقعت على أقوالها.. وواصلت طريقها دون اكتراث لعدد من الصحفيين الذين كانوا بانتظارها. تَناوَل وسائل الإعلام للجريمة جعلها ربما عن عمد خبرا يزاحم الأخبار

الساخنة والمتلاحقة التي تشهدها البلاد، الإثارة بلغت منتهاها حيث طالت أصابع الاتهام كل المحيطين بالرجل بل أنها لم تستثن الرجل ذاته حيث لم تُنف بعد فرضية الانتحار. كان طه قد مَثُل للتحقيق هو الآخر، بدا واثقا حين سأله المحقق:

- ما علاقتك بالمجني عليه.
- صديق قديم .
- متى التقيته آخر مرة.

منذ شهر تقريبا.

- أين؟
- في منزله.
- وماذا دار بينكما؟
- عادي، ككل مرة نلتقي نتحدث عن أخبارنا وتحدثنا أيضا كغيرنا من المصريين عن أحوال البلد.
- فقط! ألم يحدث بينكما شجار؟

حينها أدرك طه أن المحقق يرمي لشيء ما، فقال:

- نعم كان هناك سوء فهم وانتهى.
- أقدر أعرف طبيعة سوء الفهم هذا؟
- أمر بسيط، خدعني، تعاتبنا، وكل شيء راح لحاله.

- لم تجبني عن سوء الفهم "البسيط" الذي استدعى استخدامك للسلاح! قال المحقق ثم أردف: خدعك بخصوص سوزي، أليس كذلك؟
- نعم.
- وهل هذا يستدعي أن تقتله؟
- "لم أقتله" قالها طه بشيء من الحدة جعلت المحقق يتأمله قليلا قبل أن يطلب منه التوقيع على أقواله ويأذن له بالانصراف.

١٠

في عالم الجريمة يقولون ابحث عن الدافع، عن المستفيد، عن صاحب المصلحة في القتل، وفي هذه الجريمة وجد المحققون أنفسهم عاجزين، فكل المحيطين بالرجل لهم مصلحة في قتله، ناهيك عن ضحاياه الكثيرين والذين تمنوا موته، الكارهون للرجل كثر، عمال مصانعه أقاموا مظاهرات ابتهاجا بموته وهشموا لوحة تحمل صورته. ورغم اتساع رقعة أصحاب المصلحة في قتله إلا أن النيابة لم تحصل على دليل دامغ تستند إليه في توجيه الاتهام لشخص بعينه.

جين اُستدعي الدكتور سعد للتحقيق سأله المحقق.

- لماذا عزفت عن الزواج يا دكتور حتى هذا السن؟
- أظن من حق كل شخص أن يتزوج أو يعزف عن الزواج.

زم المحقق شفتيه وهو يؤرجح رأسه مؤيدا، ثم استدرك متسائلا:

- لكن أليس غريبا أن يظل شخص مقتدر في مركزك دون زواج حتى هذا العمر؟
- قلت لحضرتك هذا أمر يخصني.
- تمام.. تمام.. هل أخبرك المجني عليه بموافقة سوزي على الارتباط بك؟
- نعم، هكذا فهمت من والدي.
- وماذا كان رد فعلك حين علمت أنه كذب عليكم وأن سوزي رفضت هذا الارتباط؟
- لا شيء..
- ألم يدفعك ذلك لقتل الرجل؟
- لست همجيا لأفعل ذلك.. كل شيء قسمة ونصيب..

كان تقرير الطب الشرعي بين يدي المحقق حين بدأ باستجواب فاطمة، قائلا:

- لقد ذهبتِ إلى فيلا المجني عليه قبل قتله بأيام، أقدر أعرف السبب؟

صمتت.

- هل للحادث الذي أصاب ابنك الوحيد علاقة بتلك الزيارة؟ بمعنى آخر: هل تعتقدين أن للمجني عليه يد في هذا الحادث؟

- كلا.

- فلماذا إذا ذهبتِ إلى هناك؟

صمتت.

- لماذا اصطحبتِ السيدة "هايدي" إلى فيلا المجني عليه؟ ولماذا لم تدخل معكِ لمقابلته؟

لم تجب.

- السلاح الذي ارتكبت به الجريمة يعود إلى السيدة "هايدي" التي تسكن معكم والتي أفادت أن السلاح قد سُرق منها، هل أنت مَن فعلت ذلك؟

- كلا.

- وبماذا تفسرين وجود بصماتك على هذا السلاح؟

- لا أدري..

- عند فحص محمول المجني عليه كان رقمك آخر من اتصل به، ما الحوار الذي دار بينكما؟

- لم تجب

اقترب المحقق منها وقال:

- أنت يا فاطمة متهمة بقتل المجني عليه، هددتهِ في منزلك أمام عائلتك بشهادة السيدة هايدي، وذهبتَ معها إلى فيلته وهددتهِ هناك أيضا، رقم هاتفك كان آخر ما اتصل به، بصماتكَ على مسدس هايدي الذي سرقتهِ وارتكبتِ به جريمتك انتقاما لما تعتقدين من صلة بين المجني عليه وما حدث لابنك حسين..

انهارت فاطمة:

- لم أقتله، والله العظيم لم أقتله ولم أذهب إلى الفيوم منذ سنين طويلة..

استمر التحقيق طويلا قبل أن تقرر النيابة حبس المتهمة ١٥ يوما على ذمة التحقيقات.

١١

مع كل زيارة إلى حسين كانت سوزي تجد صعوبة في تبرير غياب والدته، كانت تشفق عليه من سماع أخبار كتلك، هي تعرف قدر والدته لديه، لم تكن أُماً عادية، بل كانت له كل شيء.

اضطرت سوزي إلى الكذب حين أدعت أن ساق والدته كُسرت وأن الأمر تطلب ملازمتها للفراش بناء على أوامر الطبيب. كانت تقرأ نظرات الشك في عينيه غير أنه لم يحدثها صراحة بشكوكه تلك. ذات مرة طلب من إحدى الممرضات الاتصال على رقم محمول بعينه، كان ذلك رقم والدته والذي ما يزال يحفظه عن ظهر قلب. غير أن الهاتف كان مغلقا. كرر الأمر مرات عدة، وكان الهاتف دائما مغلقا، فيتنامى الشك بداخله.

كانت هايدي قد أوكلت مهمة الدفاع عن فاطمة إلى أحد محاميها بناء على طلب سوزي، إلا أنه لم يستطع أن يفعل شيئا أمام أدلة الإدانة القوية والتي بموجبها أحالت المحكمة أوراق المتهمة إلى مفتي الجمهورية بعدما استقر في عقيدتها واطمأن وجدانها إلى أن المتهمة قد اقترفت جريمة القتل العمد عن سبق إصرار وترصد انتقاماً لما فعله المجني عليه بابنها الوحيد.

في زيارتهما الأخيرة لها قبل أن ينفذ فيها حكم الإعدام، رفضت مقترحا برؤية ابنها، أو حتى محادثته هاتفيا كما فعلت مرات من قبل. بدت هادئة، مستسلمة لقضاء الله، فقط راحت تقسم لهما من جديد أنها بريئة.. لم تقتله، ثم وجهت حديثها صوب هايدي وراحت تقسم لها أنها لم تر المسدس منذ أعادته إليها. كانت الزيارة على وشك الانتهاء، فسارعت توصيهما خيراً بحسين

وتُحملهما وصيتها إليه والتي مفادها أن ينسى الماضي ويفكر في مستقبله..

في طريق العودة سألت سوزي والدتها عن قصة المسدس الذي تحدثت عنه فاطمة، كان السؤال مفاجئا حتى أن السيارة اختلت من هايدي للحظة قبل أن تعود وتحافظ سريعا على توازنها وهي تقول:

- لا تشغلي بالك..
- "لم أفهم يا مامي" قالتها سوزي في إصرار على الفهم، أوقفت هايدي السيارة فجأة وقالت بعصبية:
- ماذا بك؟ أشعر وكأنني في محكمة!
- متأسفة يا مامي.. قالتها سوزي واستطردت: أراك عصبية، دعيني أقود السيارة مكانك..

امتصت هايدي شيئا من عصبيتها، لكنها لم تتحمل نظرات الريبة في عيون سوزي، فقالت:

- منذ بداية الظروف التي تمر بها البلاد وأنا أحمل مسدسي، لا أدري كيف سقط من حقيبتي لديهم، عثرت عليه فاطمة، خمنت أنه لي، وردته إلي بعد أن أخبرتها أنه يخصني.. هذه كل الحكاية، خلاص أم أن هناك أسئلة أخرى؟!

قالتها هايدي ثم انطلقت مسرعة بسيارتها، تطاردها الأحداث كشريط سينمائي.. كانت هايدي قد استغلت فرصة انفرادها بفاطمة وسألتها عن علاقتها بعطية، ولماذا لم تتهمه رغم يقينها أنه من يقف وراء الاعتداء على حسين؟ بعد تردد، حدثتها فاطمة عن قريتها الرابضة بالقرب من بحيرة قارون، وبيتها الذي يواري عزلته بمنزل عطية، ووحدتها التي سمحت لعطيه أن يتسلل إلى حياتها قبل أن يهرب دون أن يعلم أن له ولدا منها.. لا تدري فاطمة لماذا لم تخبرها يومها بقصة الكنز، ربما تعلق الأمر بالخشية من تهمة الجنون التي تلاحقها كلما تحدثت في هذا الأمر. كان وقع الكلمات صاعقا على هايدي وهي التي لم توافق على ارتباط ابنتها بحسين، بل أنها حين جاءت إلى بيتهما لم يتعلق الأمر بالتعرف عليهما كما أوهمت سوزي، فهايدي هانم لم تكن لتسمح أن تُناَسب أشخاصا دون مستواها.. لقد وجدته مكانا آمنا بعيدا عن أعين عطية ورجاله، وتسكينا لابنتها ريثما تستقر على خطوتها القادمة. عاشت بينهما مستمتعة بوقتها غير أنها لم تغير قناعتها بأن هذا الوضع مؤكد لا يعني شيئا.. لتفاجأ أن فاطمة ضرتها وأن حسين ابن لعطيه، بما يعني أنه سيرثه. ورغم ما يشاع عن إمكانية الحجز على أموال عطية إلا أن الأمر غير مؤكد بل أنه أقرب إلى الكذب، تأكدت هايدي من ذلك عبر مكالمة هاتفية مع إحدى الشخصيات النافذة والتي لا تزال تحفظ لها ولأبيها فضلا.. أخبرتها

تلك الشخصية أن موضوع الحجوزات إشاعة طالت كل رموز النظام السابق، وكل من عمل معه، غير أن الأمر لن يطبق للاستحالة، النظام السابق استمر في الحكم لأكثر من ثلاثين عاما، البلد كلها عملت معه وفي ظله، وبالتالي يصعب تطبيق ذلك فعليا إلا على أشخاص بعينهم وقد تم ذلك بالفعل، وعليه فإن أموال عطية لن تأخذها الدولة، وإنما ستؤل إلى حسين".. ازدادت توتراً وهي تجتر الأحداث، كانت على حالٍ أشبه بذلك الذي كانت عليه يوم انقلبت سيارتها.. الآن تسير بسرعة جنونيه تماما كالتي كانت تسير بها وقتئذ، لا تشعر بشيء، لا تنصت إلى سوزي التي تطالبها بتخفيف السرعة، لا تسمع صيحاتها المحذرة بضرورة التوقف، لم تسمع سوى دوي ارتطام سيارتها بـ"شاحنة" ثم لم تعد تسمع شيئا. بين الحياة والموت نقلت هايدي إلى مستشفى خاص، بينما لم تصب سوزي إلا بجروح طفيفة.. ساعات قضتها سوزي قلقة في المستشفى، حين خرجت هايدي من غرفة العمليات، لم يكن الوضع مطمئنا.. على سرير مقابل تمددت سوزي بعد أن نال منها الإرهاق، لم تستطع الصمود واستسلمت للنوم لوقت ما، غير أنها استيقظت فزعة على حركة غير عادية، وأصوات استغاثة أطلقتها الأجهزة الطبية المتصلة بهايدي، الأمر بدا خطيرا واستدعى نقل هايدي على عجلٍ إلى غرفة العناية المركزة.. مرت ساعة وسوزي تترقب إلى أن جاءتها الممرضة التي سبق وأوصتها بأمها

خيرا بعد أن دست في يدها مبلغا من المال. كان مقلقا أن تخبرها الممرضة أن والدتها تستدعيها على عجل. لا تدري لماذا قفزت اليها مشاهد درامية كثيرا ما شاهدتها، حين يستدعي المحتضر أحبابه ليلقي عليهم نظرة الوداع. سارعت رفقة الممرضة إلى غرفة العناية المركزة، لم يكن الأمر صعبا في مستشفى خاص حيث كل شيء مدفوع الأجر بفاتورة أو بدون.. لم يكن هنالك سوى حالتين في أقصى الغرفة بينما جلست والدتها في ركن قصي، حين دنت منها تأكد لها صدق حَدْثِها. كانت هايدي على شفا الموت، تحاول أن تتطهر. تحاول أن ترفع عن كاهلها ما حملته، وما حملته كان ثقيلا ثقل لسانها الذي لم يعد قادرا على الكلام. فقط كلمات معدودات قُطعت أوصالها وخرجت بصعوبة من بين شفتيها، وهي تخبرها أن فاطمة "بريئة". حاولت سوزي أن تستوقفها من أجل صحتها لكنها لم تتماد في ذلك. كانت متلهفة لتعرف القاتل، فأفسحت لها المجال لتكمل دون مقاطعة، حين وصلت إلى أن القاتل هو.. توقفت عن الكلام، بعد أن توقف القلب عن ضخ الدماء.. ماتت هايدي. بدت سوزي كمن تلقت ضربة قوية على رأسها، غَدت لا تستوعب شيئا. لم تستوعب ما تسرب إليها من هواجس مخيفة، لم تستوعب حقيقة وفاة والدتها حتى وهي ترى الممرضة التي اقتربت منها ، تغمض عينيها وتدثرها بالغطاء وتهمس لها بتأثر بالغ "البقية في حياتك"، لم تستوعب

شيئا، فقط استسلمت للممرضة التي أمسكت بذراعها واصطحبتها خارجا. كانت تريد أن تبكي غير أنها لم تستطع. سارت برفقتها خطوات عدة قبل أن تسقط أرضا فاقدة الوعي..

١٢

بعد أن أخطأته الرصاصة عن عمدٍ راح عطية يلملم أنفاسه الهاربة ويطمئن على أجزائه. خاطبه طه باستخفاف:

- أنت لا تحتاج إلى الموت يا عطية فأنت بالفعل ميت، وقبل أن يَهم بالخروج قال:
- حين حاولت قتلي لم أخبر الشرطة، لا تفعل مثلي يا عطية، لا تكن أحمقا، أخبرهم أني تهجمت عليك في بيتك، ثم ضحك ساخرا وهو يقول بتحدٍ: خَدَمك شهود على الواقعة، وأثر الرصاصة على حائط فيلتك.. ثم خرج وتركه وخدمه في ذهول تام.

حين نهض صبيحة اليوم التالي حاول عطية أن يخرج من حالة الكآبة التي لازمته منذ البارحة غير أنه لم يستطع. كان يشعر بضيق شديد لاسيما وهو يترقب أخبارا قيل أنها قد تطاله، اجتاحته رغبة

ملحة في العودة إلىتمرده وفِعل شيء يخالف المألوف، شيء ما يدفعه للفرار من القاهرة التي اعتادها والعودة إلى جذوره، إلى هناك، حيث بحيرة قارون والفضاء الممتد وبيته المعزول، أراد أن يعتزل الجميع ويختلي بنفسه، أراد أن يلتقط أنفاسه ويرتب خطواته. من هناك حلم بالكنوز والسيادة، من هناك حمل الكنوز وذهب باتجاه السلطة، ومن هناك قد يخرج بشيء ما يحافظ به على مكتسباته أو على الأقل يحد من خسائره.. لم يصطحب سائقا ولا بودي جارد، استقل بنفسه سيارته المرسيدس السوداء، رمز السيادة كما كان يعتقد، كان يربط دائما بين المرسيدس والسيادة، منذ الوهلة الأولى لصعوده وهو يقتني الموديلات الأحدث من ذلك الطراز وتحديدا اللون الأسود منه، لعلها عقدة نقص قديمة ألمت به. كان مؤشر المذياع قد تزاوج كاثوليكيا مع محطة شهيرة، تبث الأخبار على مدار الساعة، الأخبار الواردة متسارعة، ومع كل خبر يترقب عطية اسمه كطالب ثانوية عامة ينتظر نتيجته. وصل إلى الفيوم والشمس تلفظ أنفاسها، تماما كالمرة الأخيرة التي زارها، غير أن كل شيء لم يكن كما كان، لم يعد المكان خاويا، لم يعد بيتهم معزولا بعد أن حاصرته البيوت، الفضاء الممتد لم يعد كذلك هو الآخر بعد أن داهمته العشوائية وأقضَّت مَضْجَعه فوضى العمار، حتى البحيرة لم تكن كما كانت، بدت منهكة، مثقلة بالأوجاع.. تنبه إلى أن ثلاثة وثلاثين عاما قد مضت، وأن عمره الآن ستة

وستون، بصوت خفيض همس "ستة وستين" مضاعفات العدد ثلاثة وثلاثين، تنهد في نفسه وهو يتذكر كم كان قلقا من هذا العدد ومضاعفاته، اجتاحته سحابة حزن كادت تحجب أنفاسه. كان المنزل هو الآخر كئيبا مغبرا. لا يدري عطية لماذا لم يتخلص منه؟ لايدري أي سبب ذلك الذي دفعه لأن يعهد إلى أحد عماله بتولي أمر سداد فواتير خدماته؟ ربما شيء ما في أعماقه كان يهمس له أنه قد يعود إليه يوما.. وهاهو قد عاد بعد كل تلك السنوات.. اتجه مباشرة إلى حيث صورة أبيه، كان يريد أن يخبره أنه كان محقا، الغريب أن والده لم يضحك عاليا منتشيا، بل أنه لم يبتسم ابتسامته الخفيفة الساخرة ولم يتحرك ليصفعه بكفه الكبير ذي الأصابع الطويلة، لقد بدا حزينا هو الآخر. "ليتك صفعتني بعنف" قالها عطية بشيء من الحسرة وهو ينصت إلى الأخبار المتتابعة عبر هاتفه المحمول. المرارة التي يشعر بها في حلقه تدفعه لاستعادة شريط الذكريات، تدفعه للتفكر، تدفعه للندم، لكن بماذا يفيد الندم والأشياء تتسرب من بين يديه؟ عمره، أمواله، هيبته، سيادته، الخلود الذي حلم به، لاشيء يخلده، لا أحد يقص حكايته، لا ولد يحمل اسم.....توقف فجأة دون أن يكمل، قفز إلى ذهنه حسين، ابنه، لمعت عيناه وهو يستحضر صورته، تنازعته مشاعر متضاربة. همَّ أن يهاتف فاطمة ليطمئن عليه غير أنه تراجع في اللحظة الأخيرة، ماذا سيقول لها؟ وهل من الحكمة أن يعلم حسين

بأنه والده؟ بماذا سيبرر له؟ وماذا عن الناس حين تعلم أن ولدا له قد ظهر فجأة بعد كل هذا العمر؟ بل، وماذا عن فاطمة التي هددته إن اقترب منه؟ كان غارقا في أفكاره حين رن هاتفه المحمول، تملكه قلق مفرط حين علم هوية المتصل، تردد للحظات آتت على زمن المكالمة فتوقف الهاتف عن رناته، تساءل في نفسه: "ترى ماذا يحمل من أخبار؟" لم يمهله المتصل وقتا للتفكير حين عاود الاتصال به. هذه المرة سارع بالرد ليقطع الطريق على قلقه. مؤكد سيخبره الرجل النافذ الذي أوصاه أن يتحرى عن أية أخبار قد تطاله، أن عليه أن يهرب كمن سبقه من الهاربين قبل أن تضع الدولة يدها عليه. أو أن الأمر لايعدو أن يكون تكهنات لا أساس لها من الصحة. بدد صوت المتصل المبتهج مخاوفه حين أخبره أنه لا صحة لما يتردد عن اجراءات وشيكة بحقه. ورغم وقع الخبر المفرح عليه إلا أنه جدد رغبته في الاتصال بفاطمة، عليه أن يصوب أخطاء الماضي، لم يعد في العمر الكثير، عليه أن يعيد البسمة إلى وجه أبيه، ويرد المظالم إلى فاطمة وآخرين، بإمكانه أن يُحَّد بحسين، ولد صالح يحمل اسمه ويدعو له، بمساعدته يمكن أن يستثمر ثروته في أعمال خير تخلد اسمهما.. بعد تردد حسم عطية أمره ودون أن يفكر في النتائج وردات الفعل أمسك محموله وَهاتَف فاطمة..

حين قررت فاطمة الذهاب إلى عطية لردعه شجعتها هايدي، قدمت لها كل التسهيلات الممكنة، ثم أخرجت مسدسا من حقيبتها وأعطتها إياه، رفضت فاطمة في بادئ الأمر، لكنها أقنعتها قائلة "ربما تحتاجين إليه". كانت تمني نفسها بأن تثور، وتتهور، وَ.. تقتله، غير أن فاطمة لم تفعل، وعادت وأعادت إليها المسدس. لم تستسلم هايدي. راحت تفكر كيف تستثمر بصمات فاطمة على المسدس. خدمتها الظروف حين تواجدت بجوارها وهي تتلقى مكالمة من رقمٍ مجهول. نظرت فاطمة إلى شاشة الموبايل وقالت: لا أحب أن أرد على رقم غير مسجل لدي، ثم ضغطت زر الإجابة وبصوت متحفز قالت:

- سلام عليكم.

لحظات وردت: "نعم أنا فاطمة".. ثم تغير وجهها.

كان المتصل عطية، لم يكن من الصعب على مثله أن يحصل على رقم هاتفها، لقد بدا وكأنه شخص آخر، إنه يعتذر لها، يخبرها بندمه، بل أكثر من ذلك أخبرها أنه سوف يعترف بحسين ولسوف يرد له اعتباره.. أخبرها أنه يريد أن يمنحه أمواله باعتباره وريثه الشرعي..

لكنها ردت بحسم: "الله الغني عنك وعن أموالك". لم يغلق الباب قائلا: أعلم أنك غاضبة الآن، أثق أنك ستوافقين في النهاية، أنا الآن في الفيوم، في بيتنا القديم، بالطبع تذكرينه، إن شئت أرسلت إليك من يأتي بك لنتحدث في كل شيء، وإن شئت جئتك ع الفور. فكري جيدا، أنا في الانتظار، ولا تنسي أن حسين ابني يا فاطمة، وهو أولى بثروتي..

بدأت هايدي تدريجيا تتوصل إلى هوية المتصل عبر صوت الهاتف المرتفع قليلا وبعض ردود فاطمة، كانت في قمة دهشتها، تحاول أن تكذب نفسها. غير أنها تأكدت حين سألت فاطمة التي بدت منعزلة عن واقعها:

- ما بك يا فاطمة؟ ومن المتصل؟

تريثت فاطمة قليلا، ثم قالت:

- إنه عطية..
- وماذا يريد؟
- يريدني أن أنسى الماضي، يريدني أن أذهب إليه في قريتنا بالفيوم لنتفق كيف َن دُ اعتبار حسين ليرث أمواله.
- ولماذا الفيوم؟

ربما يريد أن يذكرني بالقصة التي حدثتك بها، يريدني أن أنسى الماضي وهو يجلس الآن في بيته المقابل لبيتنا حيث الماضي نفسه!.

- وماذا أنت فاعلة؟
- لا شيء.. لن أذهب.. الله الغني.
- ومن أدراكِ أنه سيتوقف عند هذا الحد، قد يسعى من طرف واحد لإثبات بنوة حسين.
- عندئذ يحلها ألف حلال.

لم تُهدر هايدي وقتا، ساعات وكانت في الفيوم على أبواب المنزل الذي وصلته بصعوبة، تنفست الصعداء حين رأت سيارته المرسيدس. طرقت الباب بلطف. حين رأها فتح عينيه دهشة، تسمر في مكانه، للحظات راح يحملق فيها قبل أن يدعوها للدخول. راح يخمن سبب زيارتها، فكر أنها ربما وافقت على زواج سوزي بالدكتور سعد، أوأنها اطمأنت لعدم الحجز على أمواله. هو يعلم أنه لا يزال لديها مصادرها من هؤلاء الذين مازالوا يحملون لأبيها فضلا.. تحولت ببطء، تجول بعينها المكان قبل أن تتوقف أمام صورة معلقة على الحائط. حين أطالت النظر اليها، بادرها: "والدي". لم تنطق. كان مترقبا لما سوف تبوح به، لم يسألها كيف عرفت المكان؟ مؤكد أنها عرفته من فاطمة. فقط سألها وهو في طريقه صوب المطبخ عما تشرب. غير أنه سارع وقال:

- أعملك شاي معي..

كان ردها مثيرا للدهشة حين قالت:

- لا وقت لدي..

تساءل في نفسه وقد توقف فجأة: قطعت كل هذا الطريق وترفض أن تجلس دقائق لتحتسي كوبا من الشاي!.. تسرب القلق إليه، لكنها لم تسمح بمزيد من القلق حين أسرعت وارتدت قفازا وأخرجت مسدسا أشهرته باتجاهه قائلة:

- الآن جاء وقت الحساب يا عطية.

وهو يستدير تساءل مذعوراً:

- أي حساب؟!

قالت وقد ارتدت قناع الجِد:

- تحملت إهاناتك وغطرستك بعد وفاة والدي، عايرتني وابنتي بما تنفقه علينا، سحبت سيارة ابنتي وكسرت بخاطرها، نسيت أننا اصحاب فضل عليك، ورغم هذا تحملنا.. حتى زواج هايدي بالدكتور سعد كان من الممكن معالجته بشكل أو بآخر، لكن كيف لي أن أقبل بـ"ضرة" وأنا التي لم أتحمل مجرد نزوات زوجي السابق فكان مصيره ما تعرف؟! كيف لي أن أقبل بفاطمة ضرة وأنا التي لم أتحمل فكرة زواجك من سكرتيرتك وكان مصيرها ما كان؟! كيف لي أن أقبل أن يرثك حسين وأخرج أنا وابنتي بخفي حنين؟!.. آن الآوان أن نضع حدا لهذه المهزلة، سأقتلك يا عطية.

- وما الفائدة؟ ستعدمين أو تسجنين ولن تطالي شيئا.
- لا تخشى علي، لقد رتبت كل شيء، هذا المسدس لا يزال يحمل بصمات فاطمة، بموتك سأتخلص منكما، سأقتل الماضي وأظفر بالمستقبل، سأفوز بأموالك يا عطية.
- يا مجنونة.. قالها عطية.. غير أن رصاصات مسدسها لم تمهله ليستكمل ما كان يود أن يقوله. راحت تتابعه وهو يسقط أرضا بلا حراك، ألقت المسدس إلى جواره بعد أن اطمأنت إلى موته وهي تخاطبه:
- عذرا يا عطية، لا وقت لدي لأضيعه، علَيَّ أن أعود إلى القاهرة، أخبرتهما أن لدي مشوارا وسوف أتأخر بعض الشيء، من المهم أن أعود سريعا حتى لا يلفت غيابي انتباه أحد.

١٤

كانت عقارب الساعة قد تخطت السادسة صباحا حين عاد الوعي إلى سوزي والتي بدأت تستوعب ما حدث، صراع رهيب بداخلها، ساعات عدة متبقية على تنفيذ حكم الإعدام بفاطمة والتي أكدت والدتها على براءتها، لكنها لم تذكر القاتل، تقاوم سوزي هواجس بشعة تطاردها وتشير إلى أن والدتها هي مَن اقترفت ذلك الجرم.. كانت لا تعرف ماذا تفعل، وإلى مَن تلجأ؟ والدتها ما تزال في المستشفى جثة هامدة، وفاطمة على شفا الإعدام.. بعد تردد قررت الاتصال بالمحامي. لكنه لم يجب، قالت بحنق: تباً لهم! حين نريدهم لا نجدهم. وبأصابع مرتجفة عاودت الاتصال، أجابها هذه المرة. حين قصت عليه الأمر، أخبرها أن شهادة المرحومة ببراءة فاطمة لا تغير في مجرى سير القضية ما لم تكن مدعومة بأدلة. استسلمت، وانشغلت بإنهاء اجراءات استخراج الجثة ومراسم الدفن.

كان حسين قد استعاد عافيته ويترقب قرار الخروج من المستشفى ورغم ذلك لم يكن سعيدا، لقد علم كل شيء.. على مدار أيام تحدثت الصحافة وأجهزة الإعلام عن أمه القاتلة التي نالت ما تستحق من العقاب، وتحدثت ايضا عن وفاة السيدة "هايدي" إثر حادث سيارة مروع، ونجاة كريمتها بإعجوبة.. كان

في حالة نفسية متدنية. صب جم حنقه على حبيبته التي لم تخبره بشيء. طرد عذرا تسلل اليه حين همس لنفسه: "حتى ولو كانت خائفة علّي، كان عليها أن تخبرني" يرد على نفسه: وماذا كان بوسعك أن تفعل وأنت مقيد أسير الفراش تحاصرك الأربطة؟ أكنت في حاجة إلى مزيد من الهموم؟! يأتيه صوته الآخر: كنت سأدعو لها، كنت سأحاول زيارتها بشكل أو بآخر، كنت سأستمع منها إلى الحقيقة التي دفنت معها.. يأتيه صوته الآخر متهكماً: أي حقيقة؟! الحقيقة كنت تعلمها حين تغافلت عن غيابها كل تلك المدة، حين صَدَّقت أنها مكسورة، حين خُدعت وأنت تسمع صوتها الواهن يأتيك ربما من خلف القضبان ليطمئنك عليها..

في موعد خروجه، كانت سوزي تنهي الإجراءات. حين فرغت، استقلا سويا سيارة عطية المرسيدس والتي آلت وراثيا إليها. في طريقهما إلى شقته بالوايلي كانا صامتين، كان يفكر في أمه التي رحلت، والعلاقة المجهولة التي جمعتها بعطية، كان يفكر في كيفية التعامل مع سوزي والتي بدورها كانت تفكر في هواجسها التي لم تغادرها والتي لا تملك عليها دليلا. قطعت الصمت وأخبرته بوصية أمه، كانت قد استقرت على أن يكون الكلام بصيغة الجمع، قالت: "لننظر إلى المستقبل يا حسين، المرحومة ورغم أنها ظُلمت إلا أنها كانت مطمئنة لقضاء الله، مؤمنة بقدره، ما عند الله باق يا حسين.

قال بصوت حزين:

- ونعم بالله، ثم أردف بتأثر: غابت وغابت معها الحقيقة، كنت أود أن أعرف حقيقة علاقتها بذلك الرجل، سيظل هذا الأمر يؤرقني..

قالت باقتضاب:

- هي أخبرتني.. كان جارا لها إبان فقره، ولم تره منذ ذلك الحين..

***

في ٢٠١٣/١٠/٣٠ ُمنع طه من السفر وجمدت أمواله وألقي القبض عليه بتهمة غسيل الأموال والانضمام إلى كيان إرهابي أسس على خلاف القانون..

(تمت)

***